(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود

والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين

أمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم

قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون)

[المائدة ، 82]

كما رأينا بالفصل السابق الدعوات المحمومة للحروب الصليبية والتى نتج عنها هذا السيل الجارف من فقراء أوروبا الذين حاولوا الفرار من الأوضاع المأساوية التى فرضت عليهم طمعاً فى حياة أفضل وعُدوا بها بالشرق، فبقدر ما كانت أوروبا رحيمة بفئة قليلة من أبناءها وهم النبلاء وكبار رجال الدين، بقدر ما كانت أماً فى منتهى القسوة على الأغلبية العظمى من مواطنيها، يضاف لذلك خراب مساحات واسعة من الأراضى الزراعية والقرى بفعل هجمات الفيكنج والحروب الداخلية بين الأقطاعيين مما أدى لشح المواد الغذائية بأوروبا فى هذه الأونة، مما ترك قطاع عريض من الأوروبيين فى حالة يرثى لها من الفقر والجوع والحرمان وعدم الأمن، يضاف لذلك الأعتقاد الجازم المنتشر بأوروبا فى ذلك الوقت بقرب ظهور المسيح ونهاية الأرض فليس هناك أفضل من الحج والغفران الممنوح من باباوات روما لنهاية الحياة، فقد كانت فكرة نهاية الحياة فى الأرض المقدسة فكرة لها رونقها، ووعد الباباوية بإسباغ رعايتها وحمايتها على ممتلكات المشتركين بالحملة لحين عودتهم يبعث الطمأنينة فى نفوس الأثرياء، وقد أدى كل هذا لخروج ألاف المتحمسين لفرض السيطرة على بيت المقدس تحت قيادة بطرس الناسك وأدى كثرة وعدم نظام هذه الجموع إلى مسارعة أمبراطور بيزنطة بالتخلص من هذه المجموعات الفوضوية التى أرهقت دولته سلب وسرقات وقتل، فبينما كان الأمبراطور البيزنطى ألكسيوس يطمح فى مرتزقة يحاربون ضمن صفوف جيشه، فوجئ على مشارف عاصمته ببضعة آلاف

من المحتاجين للطعام، فقام بدفعهم لعبور البسفور فأعادوا نفس أعمالهم الوحشية من قتل وسرقة للمواطنين المسيحيين شرق البسفور فى الجزء الواقع تحت السيطرة السلجوقية، فلم يجد هؤلاء المواطنون المسيحيون الأبرياء أى حماية من أعمال الجيش المقدس سوى لدى السلاجقة المسلمين الذين قاموا بحصد رؤوس هذا الجيش والقضاء عليه تماماً، وأن نجى قائدهم بطرس لوجوده فى القسطنطينية لتخبئ لنا الأيام مفاجأة، مما بين أن مهمة بهذا الحجم كانت فى أشد الإحتياج لعسكريين محترفين،

فى هذه الأثناء كانت النخبة العسكرية الأوروبية تستعد للقيام بما أطلق عليه الحملة الصليبية الأولى أو حملة الأمراء، وكما رأينا كانت مؤلفة من جيوش بعض كبار الإقطاعيين الأوروبيين مختلفى الدوافع للإشتراك فى هذه الحرب، وكان هؤلاء الأمراء عسكريون محترفون، فأمتلكوا الصبر وقدرة السيطرة على جيوشهم مما جعلهم لا يتعجلون موعد بدء زحفهم حتى إتمام إستعداداتهم العسكرية وتنظيم شئون إدارة إقطاعياتهم أثناء غيابهم بالشرق، تتكون جيوشهم من الآلاف من الفرسان ثقيلى العدة، ومساعديهم التكتيكيين من الفرسان خفيفى العدة والمشاة، ورماة السهام، علاوة على رجال الدين وخدم المعسكرات ومهندسو الحصار، والتجار والأفاقون وطالبوا الغنائم والنهابون، والجراحون، وغلمان الأصطبل، والعديد من النساء البغاة ،

وتتابع خروج هذه الجيوش على موعد للتجمع فى القسطنطينية الغير مرحبه بوجود جيوش قوية داخل حدودها، من الممكن أن تسبب لها الكثير من الأضرار، لهذا عمد الأمبراطور ألكسيوس كومنين إلى عدم السماح لأجتماع جيشين من هذه الجيوش بجوار عاصمته، والعمل على عبور هذه الجيوش لمضيق البسفور أولاً بأول، ليكون مكان الحشد والتعبئة شرق البسفور وليس غربه، ولعدم الثقة المتبادلة بين ألكسيوس والجيوش القادمه لإنقاذه، حاول الأمبراطور إنتزاع قسم تبعية كما هو العرف الإقطاعى الغربى من هؤلاء الأمراء ليصبحوا أفصال وتابعين له فى الأمارات التى سيقيمونها فى الشرق، علاوة على القسم على إعادة الأراضى التى أستولى عليها السلاجقة من الأمبراطورية البيزنطية فور فرض السيطرة الغربية عليها لتكون خالصة لبيزنطة بدون أى سيطرة لاتينية عليها، وذلك لإقتناع الأمبراطور ألكسيوس إن الهدف الحقيقى للفرنجة هو الحصول على أمارات شرقية، ولكن كما سنرى حاول الأمراء ـ ذوى الأطماع فى تكوين أمارات فى الشرق ـ التهرب

من هذا القسم أو قاموا بالقسم مع النية الحنث به، فقد طمع الجميع فى الكعكة قبل نضجها وسعوا جميعهم للحصول على نصيب الأسد من الجائزة قبل الوصول لخط النهاية، فبينما نظـرت الأمبراطورية البيزنطية إلى جموع الصليبيين إلى أنها نجدة أرسلت لها لطرد السلاجقة وإستعادة أراضيها المسلوبة، نظر الصليبيون إلى هذه الحرب كفرصة للثراء والمجد.

هكذا تجمعت أربعة جيوش كبيرة أعتمدت فى تنظيمها على أسس الجغرافيا والعرق والجنس،

وأول الزاحفين كان هيو كونت فيرماندوا الأبن الأصغـر لهنرى الأول ملك فرنسا السابق، والشقيق الأصغر لفيليب الأول ملك فرنسا، من إقطاعيته بوسط فرنسا، مدفـوعا من أخيه الملك الباحث عن الغفران البابوى على جـريمة الزنا التى أقترفها مع عشيقته بيرترادا مونتيفرات[1]، فدفع بأخيه كالمحلل ليمنحه البابا الغفران الذى يتشوق إليه، وهيو هذا كان إنذاك فى أوائل الأربعين من العمر مغرور لدرجة المرض، ويُطلِق على نفسه لقب "أعظم الأحياء تحت السماء" وصاحب كونتية صغيرة جداً حصل عليها بزواجه من وريثتها، متوسط الثروة فمن الممكن أنه قد إجتمع مع إلحاح أخيه ملك فرنسا على سفره طموح هيو فى تكوين إمارة كبيرة تعوض صغـر حجم إقطاعيته فى فرنسا، ويتحرك هيو من فرنسا ماراً بإيطاليا ومنها ركب البحر ميمماً صوب القسطنطينية، التى وصل لشواطئها مغطى بالأوحال بعد غرق بعض سفن اسطوله ليتم إنقاذه من الغرق وإلباسه ملابس أخرى تليق بمقابلة الأمبراطور الذى لمس غرور هيو فأخـذ فى تملقه وأغراقه بمنحّه وعطاياه مما كان له تأثير السحر على هيو فسارع بالموافقة على قسم يمين الولاء للأمبراطور، وتم تنظيم عبور هيو وجيشه للبسفور مع نصائح بعدم الأشتباك مع السلاجقة وإنتظار باقى الجيوش الصليبية،

والثانى هو جودفرى البولونى دوق اللورين (Godfrey of Boyillon) (1100/1060م)، بشمال غرب فرنسا كان شاب إنذاك من مواليد 1060م له إقطاعية صغيرة جدا، ويتولى إدارة دوقية اللورين ولكن ليست وراثية لأسرته، بل مجرد إقطاع مؤقت من أمبراطور ألمانيا، فبعد وفاة جودفرى الأحدب دوق اللورين أوصى بأن يخلفه أبن شقيقته جودفرى هذا، ولكن

[1] كانت والده الملك فولك ملك بيت المقدس، ثم هربت من والده لتصبح عشيقة لملك فرنسا فيليب الأول

الأمبراطور هنرى الرابع طمع فى الدوقية فقام بتنصيب أبنه كونراد دوقاً عليها، ولكن بعد مساعدة جودفرى له فى حربه ضد البابا أوربان الثانى قام بمنحه حكم الدوقية وأن كان بشكل غير وراثى، مما سرب له الشعور بعدم الأمل فى إمكانية توسيع ممتلكاته بالغرب فلماذا لا يبحث عن حظه فى مكان أخر وينول معه مباركة البابا المعادى له، وصحب جودفرى أخواه، يوستاس والأخ الأصغر بلدوين الذى كان لا يملك أى ممتلكات فى الغرب، ففتحت له هذه الحرب أبواب سحرية يستطيع بها التمتع بما حرم منه بموطنه، فلهذا حرص على إصطحاب زوجته غودفير وأولاده معه فهو لم يمتلك نية الرجوع للغرب بعد ذلك، وبدء جودفرى إستعداداته بإعلانه نيته الثأر للمسيح من اليهود، الذين سارعوا بتقديم الرشى والأموال لشراء سلامتهم وهذا هو المطلوب ،

هذا الدوق الورع الذى أعتاد بإنتظام نهب الأديرة المحيطه بإقطاعيته، رسم مؤرخو الحروب الصليبية المعاصرين صورة براقة للفارس الصليبى ذو الكفاءات العسكرية الفذة ـ التى لم تظهر طوال الحملة ـ والذى أسمه يثير الرعب لدى السلاجقة، بل وصلوا به لمصاف أبطال الأساطير اليونانية ،

فضل جودفرى إتخاذ الطريق البرى للوصول للقسطنطينية عبر المجر والذى وافق ملكها على عبور الجيش، بعد التحفظ على بلدوين وزوجته وأولاده كرهائن لضمان عدم تكرار ما أقترفه جيش بطرس فى بلجراد قبل ذلك، متجنباً المرور بإيطاليا بسبب سوء علاقته بالباباوية[2] لمساعدته للأمبراطور الألمانى هنرى الرابع أثناء صراعه ضد البابا أوربان، وما أن عبر الجيش الحدود المجرية حتى تم إطلاق سراح الرهائن، وأستمر جودفرى فى زحفه حتى وصل للقسطنطينية فبادر ألكسيوس بدعوته للمثول أمامه، فقد كان وصول جيش بضخامة جيش جودفرى يقلق الأمبراطور ويجعله يعمل على سرعه عبوره للبسفور، ولكن جودفرى تخوف بسبب الشائعات المنتشرة بإن الأمبراطور يحتجز هيو، فسارع ألكسيوس بأرسال هيو عسى أن يستطيع إقناع جودفرى بمقابلته، ولكن هيو أخفق فى المهمة بسبب تعنت جودفرى، الذى أوسع هيو معايرة بسبب خضوعه لأليكسوس،

[2] كما رأينا كان هناك صراع بين البابا أربان الفرنسى ضد البابا جيبرت الألمانى وقد وقف أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الألمانى مع أبن جلدته وقد ساعد جودفرى الأمبراطور الألمانى الذى كان من أفصاله وتابعيه الأمر الذى يبين أن هدفه الحقيقى لم يكن الإستجابه للبابا أربان بقدر كان هدفى تفوح منه مصالح دنيوية،

عمد ألكسيوس إلى قطع الأمدادات ومنع تموين جيش جودفرى، فبادر بلدوين إلى نهب ضواحى العاصمة فأقتنع ألكسيوس بعدم جواز منع تموين الجيش القادم لإنقاذ أمبراطوريته، وأعتمد على سلاح الصبر والنفس الطويل مع جودفرى، ولكن كان مجئ أخبار بإقتراب جيوش صليبية أخرى من العاصمة إنذار بوجوب إنهاء تواجد جيش جودفرى أمام القسطنطينية، حتى لا يجتمع جيشان أمامها مما ينذر بالخطر على الأمبراطورية من منقذيها، فحاول الأمبراطور التصعيد بتقليل الأمدادات لجودفرى وجيشه بدئها بوقف أمدادات العلف، فقام بلدوين بمهاجمة القرى المحيطه ونهبها، مما شجع جودفرى بمهاجمة أسوار العاصمة نفسها، متجاهلاً دعوة الأمبراطور له بوجوب إنتقال جيشه للجهة الأخرى من البسفور، رافضا مبادرة وقف القتال التى حملها زميله فى الحرب المقدسة هيو بل وعايره جودفرى ثانيةٌ بالعبودية للأمبراطور لأنه أقسم يمين الولاء له، فأخذت القوات البيزنطية[3] بزمام المبادرة فنجحت بعد قتال أجبر الفرنجة على أن يولوا الأدبار، فى إقناع جودفرى على مشروعية قسم اليمين للأمبراطور وحتمية إسراعه بعبور البسفور، وبهذا أقسم جودفرى وأخويه وجميع باروناته يمين الولاء للأمبراطور سيداً أعلى على جميع الأراضى التى سيستولون عليها، مع القسم بتسليم مندوبى الأمبراطور جميع الأراضى التى كانت تابعه للأمبراطورية قبل إستيلاء السلاجقة عليها، بعد قتال وقع بين جيش الأمبراطورية البيزنطية والقوات القادمة لخدمة الأمبراطورية نظرياً،

وفى هذه الأثناء وصل جيش النورمان قادماً من جنوب إيطاليا تحت قيادة بوهيمند كونت أبوليا والذى سبق له هو ووالده روبرت جسكارد، مهاجمة الأمبراطورية البيزنطية قبل ذلك، حتى كونتية بوهيمند فى إيطاليا إنما أسسها أبيه على أراضى بيزنطية أستولى عليها، وكان بوهيمند ـ بقامته الطويلة وظهره ذو الإنحناءة الطفيفة وشعره المسترسل الطويل ـ أمير شديد الطموح بينما لم يرث عن والده إلا إقطاعية صغيرة وورث معها عداء عمه روجر ملك صقلية، مما أقنعه بإستحالة تحقيق طموحاته فى الغرب فجاءت الحرب الصليبية كطوق نجاة ليعبر به لشاطئ الثروة والنفوذ، فما أن تطرق لسمعه أخبار الحملة على الشرق حتى أزمع السفر مصطحباً معه أبن أخته تنكريد، وكانت حروبه السابقة ضد الأمبراطورية دافعة أياه للتأكد من قوتها وأهميه

[3] كانت القوات الموكل لها مراقبة الجيوش الصليبية قوات من المرتزقة الأتراك، وتشبه مهام قوات الشرطة العسكرية الأن،

التحالف معها، فوافق مباشرة على قسم يمين الولاء الذى طلبه منه الأمبراطور وأن حمل نية الحنث بهذا اليمين، وطلب فى مقابل ذلك إن يعينه الأمبراطور كممثل شخصى له وقائداً عاماً على القوات الصليبية، مما يمنحه نصيب الأسد عند توزيع الغنيمة المرتـقبة، وينصبه كوسيط بين الأمبراطور اليزنطى والصليبيين، وهو ما وعده الأمبراطور به وعد ضمنى مبهم، فبهذا كان عبور بوهيمند وجيشه يعتبر أكثر سلاسة من باقى الجيوش، وإن رفض تنكريد أبن أخت بوهيمند قسم يمين الولاء للأمبراطور، وسافر عبر البسفور ليلاً وإن كان يمينه لا يهم الأمبراطور كثيراً فهو كان لورد صغير لا يحوز إلا إقطاعية متناهيةً الصغر فكان لا يُؤبه به ،

لحق بهم بعد ذلك جيش ريموند الرابع كونت تولوز من جنوب فرنسا، ومعه المندوب البابوى الكاردينال إديمار الذى تميز بقدرات عسكرية فذة وأعتاد أن يحمل السلاح ويقاتل السادة الإقطاعيين المجاورين لأبرشيته بالغـرب، وكان ريموند سبق له القتال فى الأندلس ويُعتبر أكثر الأمراء ثراءاً وأن كان أقلهم إنفاقاً، وكانت كل أمانيه تنصيبه قائداً عاماً للجيش لينهى حياته بمجـد كان طالما يبحث عنه، فهو قد إقترب من الستين عاماً، وقد لا تتجدد الفرصة له لخوض حرب ترفع ذكره مثل هذه الحرب المقدسة، وسار بجيشه براً للأقتصاد فى المصروفات مما أوقع الجيش فريسة الجوع ونقص التموين، يضاف لذلك قتال الصـرب له، حتى إستطاع الجيش بعد جهد شاق الوصول للقسطنطينية، وقد تلقى ريموند إستقبال يُرضى غروره، ولكن عندما طُلب منه قسم يمين الولاء رفض رفضاً قاطعاً، فالقسم يعنى مساواته بالأخرين من الأمراء الذين أقسموا، بينما هو يبحث عن وضع مميزاً عنهم، وكذلك يضعه هذا القسم تحت أمرة من يرسله الأمبراطور مندوباً عنه والذى من الممكن أن يكون بوهـيمند، ولهذا حاول بوهـيمند تقديم نفسه كرجل الأمبراطور، فقام بتهديد ريموند بأنه سيقاتله بقواته فى حالة خروجه على الأمبراطور، وعـليه فقد أعلن ريموند أن سيده الأعلى هو الله وأنه قد جاء لتنفيذ أمر ألَهَى فى هذه الحرب، وأبدى ريموند موافـقته على القسم بشرط قيادة الأمبراطور القوات الصليبية بنفسه، وهو ما إعتذر عنه الكسيوس بدعـوى ضرورة تواجده فى الإمبراطورية بسبب الإضطرابات التى تشهدها، فألكسيوس كان يخشى من زحفه ضمن الجيش الصليبى الأمر الذى يجعله رهينة لدى قادته ذوى المزاج المتقلب، ليوعز الأمبراطور لقادة قواته بمهاجمة قوات الكونت ريموند، ليتجدد القتال بين البيزنطيين واللاتين، قتال أنتهى عن فرار قوات الكونت،

وكحل وسط وافق ريموند على أن يقسم هو وباروناته بأن يحافظوا على حياة وشرف الأمبراطور ولا يشتركوا فى أى عمل يضر بالأمبراطور أو دولته، وقد وافق الأمبراطور على هذا القسم، وهكذا لحق جيش ريموند بسابقيه شرق البسفور، ولكن يبدوا أن طموح القادة كاد أن يجرفهم للتقاتل للفوز بفرصة أكبر فى الشرق، مما يبين نجاح دبلوماسية ألكسيوس فى التفرقة بين أكبر بارونات الجيش اللاتينى، لتتولد الكراهية الصليبية للأغريق ،

وجاء بعدهم الجيش القادم من غرب فرنسا والمؤلف من فرسان غرب فرنسا والكثير من فرسان إنجلترا تحت قيادة ثلاثة إقطاعيين، روبرت كونت نورماندى أبن وليم الفاتح ملك أنجلترا[4] ومعه ستيفن كونت بلوا زوج أخته أديلا، وأبن خالته روبرت كونت فلاندرز، وما أن وصل الجيش للقسطنطينية حتى بادر زعماءه من تلقاء أنفسهم بقسم يمين الولاء للأمبراطور، فأغدق ألكسيوس الهدايا والأموال عليهم، وعبر الجيش البسفور،

نجح الأمبراطور فى إنتزاع قسم اليمين من زعماء الجيش اللاتينى، بإعتباره سيدهم الأعلى كما هو متبع فى العرف الإقطاعى الغربى، وذلك بإتباعه سياسة العصا والجزرة، فقد أغدق عطاياه التى أبهرتهم، ثم قاتل من رفض القسم حتى يرده لجادة الطريق الذى رسمه، فهل قسم الولاء الذى نجح ألكسيوس فى إنتزاعه من زعماء الحملة بإعادة الأراضى التى كانت تابعه لأمبراطوريته وهو ما ينسحب على الأناضول وأنطاكيا وشمال الشام، سوف يستفيد منه ألكسيوس والدولة البيزنطية؟

وهكذا تجمع الجيش الصليبى بأسيا الصغرى بعد إنضمام الناجين من جيش بطرس الناسك، لتبدء أول حرب إستعمارية أوروبية، حرب ستطول وسيمتد أثارها عبر عدة أجيال، وستزهق فيها ألاف الأرواح، بينما كانت القدس قبل ذلك التاريخ مفتوحة الأبواب لقاصديها دون تميز، حرب رأت الباباوية فيها فترة هدوء من الممكن أن تنعم بها أوروبا من القتال المستعر بين الأقطاعيين الذين أدمنوا النهب والسلب، ولم تفلح فيهم هدنة الرب Pax de dei التى نادت بها الكنيسة لمنع القتال فى عطلات الأسبوع وأيام الصيام الكبير، فجاءت الحـرب الصليبية كفرصة ذهبية لنقل أعمال القتل والدمار خارج حدودها والأستفادة منها لزيادة سيطرتها، وقد حصل ألكسيوس على أكثر مما

[4] كانت نورماندى وأجزاء كبيرة من فرنسا تابعة لإنجلترا

كان يريد فقد كان أقصى ما يطمح فيه هو الحصول على بعض المرتزقة الغـربيين لتدعيم جيشه ليستطيع الدفاع عن عاصمته، ولعله يستطيع إستعادة بعض أراضيه التى أستولى عليها السلاجقة ،

بينما كان وصول الفرنجة للقسطنطينية بقبابها الذهبية الشاهقة الملتحفة بالسحاب وميناءها المزدحم وشوارعها المعّبدة، وأسواقها المكدسة ببضائع لم يروا مثيل لها بالغرب، وكنائسها وقصورها الثرية، والملابس المزركشة المطرزة باللألئ وخيوط الذهب التى يرتديها حاشية الأمبراطور ورجال جيشه، بمثابة صدمة لهم لما شاهدوه من مظاهر حضارة لم يسبق لهم رؤيتها بالغـرب المفتقر للمدن، مما جعلهم يشعرون بالدونية أمام القسطنطينية والحقد على أهلها، وأخذوا يتصرفون بشراسة وغطرسة المفلسين عندما يشعروا بالقوة تجاه البيزنطيين، مما أجج مشاعر العداء بينهم، حتى قام أحد أصحاب الألقاب اللاتين بالجلوس على عرش الأمبراطور قبل أن يقيمه زملاءه بفظاظة، مما أنعكس على تاريخ الحركة الصليبية ككل، فقد أتسمت بالعداء والكراهية وإنعدام الثقة بين اليونان واللاتين، فلم يعد إنقاذ الأمبراطورية البيزنطية هو الهدف بقدر ما كان إعادة السيطرة عليها بعد القطيعة منذ عام 1042م هو أسمى أهداف باباوات روما، وبينما الحصول على إقطاعات وثروات الشرق هدف القادة العلمانيين،

من الصعوبة تحديد عدد المعسكرين شرق البسفور، لعدم وجود سجلات لإحصاء هذه القوات، التى رافقها العديد ممن كان البابا حريص على عدم سفرهم صحبة الجيش، فالبابا أراد أقتصار المشاركة فى الجيش على المقاتلين حملة السلاح فقط، وإن فشل البابا فى السيطرة على الذين أرادوا الإلتحاق بهذا الجيش، الذى فعل البابا ورجال كنيسته المستحيل لجعل الإشتراك فى هذه الحرب أكثر بريقاً، فقط شوهد فى معسكرات الجيش العديد من رجال الدين غير المحاربيين، والنساء الذين أتوا لكسب معايشهم سواء بالأعمال المشروعة كالخدمات المعيشية، أو أعمال غير مشروعة، كما كان هناك طوفان من اللصوص الذين أرادوا توسيع حجم أعمالهم فى نطاق عمل جديد رأوا الشرق الأفضل لهم، وبين أقنان فروا بجلودهم من التعاسة التى قيدتهم بقارتهم العجوز، وباعة وسوقة، حتى أختفت مساحة واسعة من شاطئ البسفور الشرقى تحت طوفان من البشر، وإذا ما رأينا تقدير مؤرخ صليبيى والذى قدر أعداد الهجرة البشرية هذه بستمائة ألف شخص من المشاة والخدم

وطفيليين جيوش العصور الوسطى، ومائة ألف فارس[5]، بالرغم من المبالغة، إلا أنه يعطينا صورة عن ضخامة الأعداد التى سنلاقيها،

ولكن توحدت أهداف الأغريق واللاتين فى أسيا الصغرى، فأقصى ما يطمح به ألكسيوس هو أبعاد السلاجقة عن عاصمته وإسترداد مدن أسيا الصغرى وخصوصاً مدينة نيقية عاصمة سلاجقة الروم، أما اللاتين فالإستيلاء على مدينة نيقية هام جداً حتى لا تكون نقطة يستطيع السلاجقة قطع خطوط مواصلاتهم وإمداداتهم،

الجيش الصليبى

فلنرى الأن الجيش الذى علينا مواجهته، فقد أدى ضعف قبضة الأمبراطورية الرومانية وكذلك ضعف الملكيات الأوروبية فى القرن الحادى عشر إلى نمو الأقطاعيين وزيادة قوتهم مكونين أسر عسكرية تسيطر على الحياة السياسية والعسكرية الأوروبية، وتوفر الحماية للفلاحين وتستغلهم في نفس الوقت، فلم تعرف أوروبا الجيوش القومية بعد، وقد تكّونت الجيوش الأقطاعية من الفرسان وهم رأس النظام الإقطاعى، والفارس الإقطاعى كان يمر بطقوس دينية لينال هذه الرتبة، طقوس تُعتبر كمعمودية ثانيةٌ له، بعد أن يتلقى تدريبات عسكرية مكثفة لينال تجهيزات الفارس بعد أن يباركها رجال الدين، وهذه التجهيزات توفر حماية تكاد أن تكون كاملة له فهو مغطى بالحديد من رأسه لأخمص قدمه، فيرتدى خوذة حديدية مخروطية الشكل، وقميص زرد (مزدوج أحياناً) به قطع معدنية فى بعض الأجزاء يغطى جسده كله حتى فخذيه، وواقى لساعديه وقدميه من الحديد، ويتسلح بدرقة (ترس) خشبى كبير مغطى بطبقة من الجلد، يثبته بجسده بواسطته سيور من الجلد و يلقيه على ظهره إذا ما طورد من أحد الفرسان، ويحمل سيف طويل مستقيم مزدوج الحد للطعن، وسلاحه الأساسى رمح قوى طويل يثبت طرفه الخلفى فى سرجه وطرفه الأمامى يتجاوز رأس فرسه، ويتدلى من طرف الرمح تحت السنان راية صغيرة ذات أشرطة طويلة لتخيف حصان عدوه عندما ترفرف هذه الأشرطة أثناء عدو الحصان، بينما يحمى الفارس صدره بترسه الخشبى الكبيرالمغطى بالجلود، ويهاجم أعداءه بهذا الرمح بأن يحرك فرسه يمينا ويسارا حتى يصيب خصمه، كل هذا ورمحه ثابت لا يحركه، بل الحركة

[5] الحروب الصليبية ج1ص192

تكون من فرسه فقط، وتكون قوة الضربة من قوة سرعة عدو الفرس، مما يجعلها غير محتملة وقاتلة، ولم ينسى الفارس أن يعطى فرسه نصيب من هذه الحماية فيتم تغطيه الفرس بغطاء سميك به قطع معدنية فى بعض الأجزاء، كل هذا منح الفارس حماية كبيرة وإن جاءت على حساب خفة الحركة المطلوبه للفرسان، علاوة على أن الفارس إذا ما فقد فرسه فى المعركة مثل له درعه عائق عن القتال مترجلاً، وكما كانت هذه التجهيزات والتدريبات الذى يتلقاها الفارس علاوة على مجتمعه المغلق، الذى لم يكن يسمح لغير أبناء طبقته الوصول لهذه الرتبة تجعله إذا ما أعتلى فرسه ينظر للجميع نظرة متعالية، ويرى الجميع تحت سرج فرسه، مما أصابهم بمرض الغرور القاتل،

وبجانب الفرسان كان هناك المشاة، فقد كانت التكاليف الباهظة جدا لتجهيز الفارس علاوة على عدم السماح لنيل رتبة فارس إلا لطبقة الأقطاعيين النبلاء أوجد سلاح المشاة، وهم فى المعتاد من المرتزقة الذين يجُمعون قبل المعارك لقاء عائد مادى، وكانوا يرتدون معاطف من الجلد واللباد السميك جدا لدرجة إستطاعتها مقاومة السهام والنشاب، وسلاحهم الرئيس هو النشاب ذو اللولب (القوس المستعرض) الذى يستطيع قذف النشاب بقوة ولمسافة بعيدة وبقدرة عالية على النفاذ،

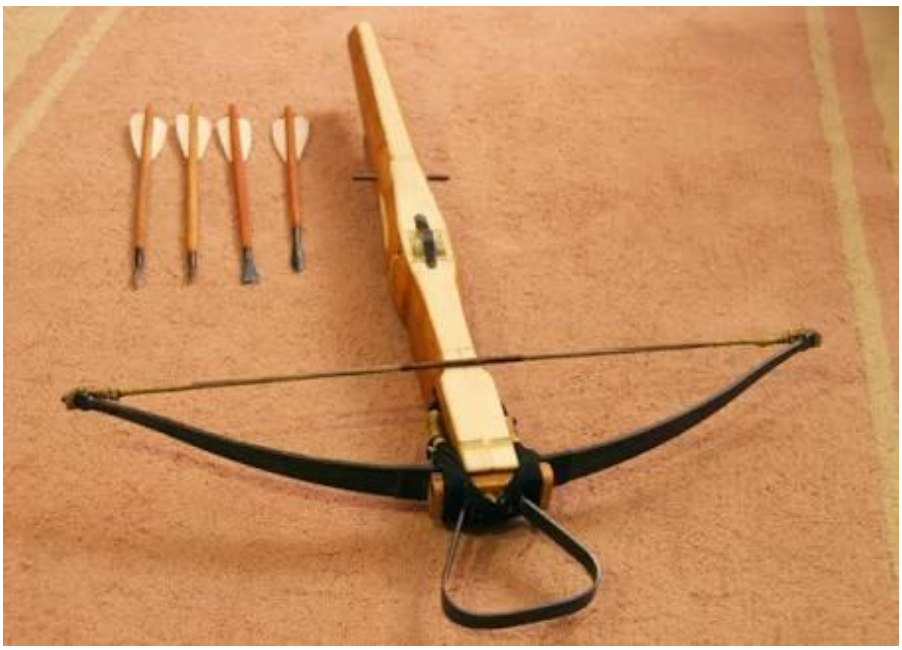

قوس مستعرض

وأجبرت الحروب الصليبية فرسان الفرنجة على إتباع إستراتيجية تعاونيه بين سلاحى الفرسان والمشاة، فالفرسان المسلمون كانوا مسلحين بالقوس المركّب القوى والسهام، وذو مهارة فائقة فى إطلاقها من أعلى صهوات جيادهم، وبسبب متانة دروع فرسان الفرنجة كانوا يستهدفون خيولهم بالسهام حتى إذا ما إصيبت كان القضاء على فرسان الصليبيين هين، ولهذا تولى مشاة الفرنجة حماية فرسانهم من فرسان المسلمين، فكان فى الغالب موقع مشاة الفرنجة بين فرسانهم وفرسان المسلمين أو كان المشاة يكونون حلقة وفى مركز هذه الحلقة كان يتمركز الفرسان الصليبيون حتى ما إذا كان الوقت المناسب لهم فتح المشاة ممرات لهم ليقوموا بالهجوم على الفرسان المسلمين،

وكان التكالب على السلطة، وطموح كونتات ولوردات الحملة الصليبية الأولى على تولى القيادة العليا للجيش الصليبى، ما أجبر القادة على تكوين ما يسمى بمجلس الأمراء، وهو مجلس تشاورى لبحث الخطط الواجب إتباعها سواء سياسية أم عسكرية أو حتى إدارية أثناء الزحف والقتال، وإقتصر حضور إجتماعات هذا المجلس على كبار قادة الجيش الصليبى وأكثرهم ثراءاً، وكذلك كبار رجال الكهنوت المرافقين للجيش ،

الأناضول والشام والأنقسام الشرقى

والأن لنرى هل كان المشرق مستعداً لمواجهة هذه الحرب الضروس؟ كانت أول قوة إسلامية ستواجه هذا الجيش الزاحف هم السلاجقة، فالطريق لبيت المقدس يمر من داخل أرضيهم، وهو ما كان يعنى ضرورة الإحتكاك الحربى بين القوتين ،

سرى الوهن فى عروق العالم الإسلامى منذ القرن الحادى عشر الميلادى، فى ظل إنقسام الشرق الإسلامى عقائدياً وسياسياً إلى خلافتين متناحرتين، عباسية سنية ببغداد، وفاطمية شيعية بالقاهرة، وتنخر المشاكل الداخلية والصراع العقائدى عظام الخلافتين، حتى باتتا عاجزتين عن حماية حدودهما، وتسيطر دولة البويهيون الشيعة على بغداد، فى الوقت الذى لم تندمل جراح الدولة العباسية من هجمات القرامطة[6] عليها 360هـ/970م لتعانى الخلافة

[6] دعوة شيعية ظهرت فى جنوب العراق وأستغلت الأوضاع الصعبة لطبقة الفلاحين على يد حمدان قرمط، وتسيطر على منطقة البحرين بشمال شرق الجزيرة العربية بمدينة الحسا وتقاتل الدولة العباسية، والدولة الفاطمية، وتهاجم مكة المكرمة وتقتل الحجاج بالحرم وترفع الحجر الأسود وترسله إلى عاصمتهم مدينة هجر حتى إستعادته ووضعه فى مكانه على يد أمير بالدولة العباسية يسمى بجكم ،

العباسية ويصبح نفوذها أوهى من الخيال، فسرعان من ترنحت الخلافة العباسية تحت وطأة زيادة نفوذ الأتراك، وتدخل النساء فى الحكم، "حتى أمرت السيدة أم الخليفة المقتدر قهرمانة لها تعرف "بتملى" أن تجلس بالتربة التى بالرصافة فى كل يوم جمعة، وأن تنظر فى المظالم التى ترفع إليها فى القصص ويحضر فى مجلسها القضاة والفقهاء"[7] وضعف أمر الخلافة جداً[8] حتى قام الخليفة الراضى بالله بتفويض الحكم إلى محمد بن رائق ولُقب بأمير الأمراء، "والخليفة ليس له مع أبن رائق نفوذ فى شئ ولا كلمة تطاع أنما يحمل إليه أبن رائق ما يحتاج إليه من الأموال والنفقات وغيرها، وهكذا صار أمر من جاء بعده من الأمراء والأكابر"[9]

ولم يقف الأمر عند هذا بل سيجبر الخليفة على الفرار من عاصمته "فقد أنهزم الخليفة المتقى بالله وأبن رائق فى جمادى الأخرة 330هـ من أبن البريدى حاكم واسط إلى الموصل فى عشرين فارساً وأستحوذ أبن الربيدى على دار الخلافة وقتل من فيها، ونهبها حتى وصل النهب إلى الحريم، ولم يدخل الخليفة بغداد إلا بجيش ناصر الدولة بن حمدان حاكم الموصل"[10]

الأمر الذى حدا بالخليفة القائم العباسى الإستعانة بهذه القوة السلجوقية السنية الناشئة، ليسرع طغرل بك زعيم السلاجقة إلى بغداد 447هـ/1055م ليعيد بعض النفوذ العباسى ويقضى على الملك الرحيم أخر الملوك البويهيين ويتخذ لقب السلطان، ليعمل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (427-487هـ/1035-1094م) على الإنتقام لسقوط الدولة البويهية الشيعية، ليجد ضالته فى أسد الدين أبى الحرث أرسلان بن عبد الله البساسيرى مقدم أتراك بغداد، ليمده الحسن بن اليازورى وزير المستنصر بالمال والسلاح على يد مؤيد الدين أبى نصر هبة الله بن موسى[11]، لينتهز البساسيرى زحف طغرل بك شمالاً لإخضاع أخيه إبراهيم الذى قاد تمرد عليه، ليهاجم البساسيرى بغداد 449هـ/1057م ومعه الرايات المصرية[12] وأجتمع أهل الكرخ الشيعة على مساعدته، ويجبر الخليفة القائم على إصدار عهد يعترف فيه بعدم أحقية بنى

7 البداية والنهاية ج6 ص165
8 البداية والنهاية ج6 ص238
9 البداية والنهاية ج6 ص238
10 البداية والنهاية ص259-260
11 الإشارة لمن نال الوزارة ص45
12 تاريخ دمشق ص146

العباس فى الخلافة فى وجود الفاطميين إبناء فاطمة الزهراء، وأنقطعت الدعوة لبنى العباس ببغداد[13] بعد أن قسم البساسيرى عسكره إلى فئتين، واحدة للقتال بالنهار من الفجر إلى المغرب والأخرى للقتال بالليل من المغرب إلى الفجر[14]، وينتصر على الألفين وخمسمائة فارس الذين أرسلهم طغرل بك لحماية الخليفة القائم، ويسجن الخليفة فى قلعة الحديثة[15]، ويخطب للخليفة المستنصر الفاطمى على منابر بغداد، والمؤذنون ينادون بحى على خير العمل، ويرسل العرش العباسى وعمامة القائم إلى القاهرة، وقبض على رئيس الرؤساء على بن الحسين بن مسلمة وزير الخليفة العباسى وجعله فى جلد ثور وصلبه حتى جف عليه فمات[16]

وإن لم يستمر هذا الوضع إذ عاد طغرل بك وقام بالقضاء على البساسيرى ويعيد الخليفة القائم لسدة الخلافة 451هـ/1058م، ويصل لعرش السلاجقة آلب أرسلان أبن شقيق طغرل بك بعد وفاته 1063م ويفرض سيطرته على مدينة حلب ويقاتل الدولة الفاطمية عن طـريق قائـده أتسز الخوارزمى، ثم يتجه شمالاً لقتال البيزنطيين،

وكأن الساحة فى حاجة إلى إنقسام جديد، فعقب وفاة المستنصر الفاطمى قام وزيره الأفضل بتنحيه ولى عهده وولده البكر نزار المصطفى بالله، ورفع زوج شقيقته أبى القاسم المستعلى بالله الأبن الصغر للخليفة الراحل لسدة الخلافة، الأمر الذى أحدث شرخاً كبيراً فى الدعوة الفاطمية التى ترى أن الإمامة تكليف لا يجوز تحويلها بشرياً، ليتخذ الأفضل العنف والشدة وسيلة ضد معارضيه، ويحاصر نزار المصطفى بالله بمدينة الأسكندرية قبل أن يقتله 488هـ/1095م، وتنسج الأساطير حول نزار، ويولد له من هذه الأساطير أبن، يلتف حوله المنشقين الفاطمين الجدد، وعلى رأسهم الحسن بن الصباح المؤسس الحقيقى لفرقة الحشاشين الرهيبة[17]،

رأينا إن الأنتصار الساحق الذى حـقـقه ألب أرسلان سلطان السلاجقة على رومانوس الرابع أمبراطور بيزنطة فى ملاذكرد (مانزكرت) فى عام 1071م

---

13 تاريخ دمشق ص 148

14 الإشارة لمن نال الوزارة ص44

15 قلعة بجزيرة بوسط نهر الفرات بالقرب من الأنبار

16 الإشارة لمن نال الوزارة ص46

17 الحشاشين أو الباطنية، وهى فرقة شيعية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو الأمام السابع عندهم،وأطلق عليه الباطنية لإعتقادهم أن للعقيدة ظاهر لعامة الناس، وباطن لهم،

وأسره للأمبراطور البيزنطى كان الشرارة التى أشعلت فتيل جولة جديدة من الصراع بين الشرق والغرب، والغريب أن السلاجقة لم يحاولوا إستثمار إنتصارهم فى ملاذكرد وتثبيت أقدامهم فى الأناضول، وبدلا من ذلك إستدار السلطان ألب أرسلان ليقاتل بعض أفراد أسرته فى بلاد ما وراء النهر، ليقُتل هناك فى العام اللاحق على معركة ملاذكرد 1072م، ليخلفه أبنه جلال الدولة أبو الفتح محمد ملكشاه، والذى عين أحد أقاربه وهو سليمان بن قتلمش كنائب عنه فى الأناضول، والتى أصبحت بحكم موقعها ميدان الصراع بين السلاجقة والبيـزنطيين، مما دفع سكانها إلى الهجرة منها فأضحت شبه خالية من السكان، يضاف لذلك الطابع العسكرى الصرف الذى صبغ الدولة السلجوقية، والذى أنطبع على التواجد السلجوقى بأسيا الصغرى، مما حدا إلى إقتصار التواجد السلجوقى على الحاميات بالمدن الكبرى فقط، بينما التركيب السكانى كان كما هو بيزنطياً فى الأغلب، مما سهل مهمة الإستيلاء عليها سواء من جانب السلاجقة أو الصليبيين بعد ذلك، وإن كان السلاجقة إستطاعوا فرض سيطرتهم على أسيا الصغرى إلا أنه لم يكن هناك رابط بين الأمراء الأتراك هناك، فلم تكن هناك سلطة موحدة إستطاعت فرض سيطرتها على الجميع ،

بالرغم من كفاءة السلاجقة العسكرية إلا أنهم فشلوا فى إقامة دولة مـركزية، فهم ما أن أنتهوا من تشيد صرح أمبراطوريتهم الباهرة، حتى رأوا إنهيار هذا الصرح سريعاً، دون أن يتسع لهم الوقت للإستمتاع بها، قد يكون السبب هو نظام الإقطاع الذى سمح للقادة الطموحين بتكوين قوات ذات ولاء شخصى لها، فى دولة مترامية الأطراف سيطرت على شمال وشرق العالم الإسلامى، فالشام أراضيه تمزقت بين الأمراء الطموحين للسلطة، وإن حاول ملكشاه فرض سيطرته على الشام عن طريق إرساله أخيه تاج الدولة تتش ليستولى على الشام ويحكمه بأسمه (470هـ/1077-1078م)،

ثبت تتش قـدمه فى دمشق وأن فشل فى الإستيلاء على حلب من حاكمها العـربى سابق بن محمود المرداسى 1079م، بعد أن أسُتنزفت دمشق تماماً تحت الحكم الفاطمى لسوء العلاقات بين الولاة الفاطميين وأهالى دمشق، حتى "أشتد الغلاء بدمشق وعدمت الأقوات، ونفذت الغلات منها، وأضطر الناس إلى أكل الميتات، وأكل بعضهم بعضاً"[18] وتعانى دمشق من أتسز بن أوق السلجوقى "ونزل بأهلها منه قوارع البلاء" حتى لم يبق من أهلها سوى ثلاثة

[18] تاريخ دمشق ص174

آلاف إنسان، بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء"[19] حتى وإن كان فى هذا الوصف الكثير من المبالغة إلا أنه يبين مدى الدمار الذى أصاب الشام،

وكان تتش قد أرسل قائد من قواده يسمى أتسز بن أوق لمحاربة الفاطميين والإستيلاء على جنوب الشام، فأستولى أتسز على بيت المقدس والرملة والساحل ما عدا أرسوف (1076م/1077م)، وكانت الأنتصارات التى حققها أتسز دافعه له لمحاولة غزو مصر، ولكنه هُزم على يد بدر الدين الجمالى الوزير المصرى، والذى أرسل قائده ناصر الدولة الجيوشى يطارده حتى دمشق محاولاً السيطرة عليها ولكنه فشل أيضاً فى الإستيلاء عليها، بعد إستنجاد أتسز، بتاج الدولة تتش وتسليمه دمشق له، وكانت القوة التى تمتع بها بدر الدين الجمالى المستنصرى دافعاً له لمحاولة فرض سيطرته على الساحل الشامى، الأمر الذى أدخل عنصراً جديداً فى القتال المستشرى بالشام، فقام بدر الدين بمهاجمة صور وحصارها، وبها صاحبها القاضى أبن عقيل، الذى أستنجد بأمير من الأتراك يسمى الأمير قرلو، الذى هاجم بدوره صيدا المملوكة لبدر الدين ليجبره على مغادرة صور،

ثم جمع تتش بين حكم دمشق وحلب بعد الإستيلاء عليها، ولفرض سيطرته عليهما قام بقتل قائده أتسز (1079م) بعد تخوفه من طموحه، وهكذا أصبح وسط الشام بيد تتش بينما الأناضول تحت حكم سليمان الذى أستطاع الإستيلاء على أنطاكيا، التى كانت تحت الحكم البيزنطى فى 1085م أى قبل ثلاثة عشر عاماً من مجئ الصليبيين تحت أسوارها، وإكمالاً لمسلسل القتال بين أمراء الشرق تقاتل أبناء العم تتش وسليمان، ليخر سليمان قتيلاً فى أرض المعركة فى 1086م بسهم أصابه فى وجهه[20]، ليخلفه أبنه الصبى قلج أرسلان داود، والذى كان عليه مواجهة جيوش الفرنجة، وأدى مقتل سليمان إلى تفكك دولته بالأناضول، ومحاولة صغار قادة التركمان البحث لهم عن مكان تحت شمس السلطة، وحرمان سلاجقة الروم بأسيا الصغرى من شخصية قوية كانت أكثر قدرة على مواجهة الصليبيين، وتنامى حالة العداء بين سلاجقة الشام وفارس من جهة وسلاجقة الروم من جهة أخرى، مما

[19] تاريخ دمشق ص 178
[20] تاريخ أبن أبى الهيجاء ص 136

أضعف دولة سلاجقة الروم الأمر الذى يسر مهمة الصليبيين فى عبورهم أسيا الصغرى ،

وأدى إنتصار تتش إلى تخوف أخيه ملكشاه من زيادة نفوذه فسارع بالتوجه شخصياً لحلب، فرأى تتش أن الحكمة تفرض عليه عدم مقابلة أخيه فسارع بالأبتعاد عن طريقه، وحاول ملكشاه إعادة توزيع أمارات الشام وتفتيتها لضمان عدم إستقلال أحد عن دولته، فعين قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكى أميراً لحلب، ونصب أمير يسمى مؤيد الدولة ياغى سيان بن محمد بن ألب التركمانى أميراً لأنطاكيا بعد أن ترك معه حامية سلجوقية من أربعة آلاف فارس، تاركاً دمشق فقط لأخيه تتش، والذى عين قبل ذلك الأمير أرتق أميراً على بيت المقدس، وعندما توفى أرتق خلفه أبنه سقمان، وقام تتش بعد ذلك بمهاجمة حمص وإستولى عليها بعد قتل أميرها أبن ملاعب، مما أغرق الشام فى بحور من الفوضى، وتعطلت الأنشطة الصناعية والزراعية والتجارية بالشام، الأمر الذى دمر الإقتصاد العام، وأوصل الشام لحافة الإفلاس، وحرم قيام دولة قوية موحدة بها مما جعل مهمة الصليبيين سهلة وهينة ،

وكانت وفاة ملكشاه 1092م بداية موجة جديدة من الصراع على السلطة بين أبناءه الأربعة وعمهم تتش، فقد عمل تتش على توسيع نفوذه فـأستولى على حلب من قسيم الدولة وقتله وأسر الأمير كربوقا أتابك الموصل، ويستمر كربوقا فى الأسر حتى يطلق رضوان بن تتش سراحه، ثم يُقتل تتش بعد ذلك فى معركة بينه وبين أبن أخيه السلطان بركياروق فى 488هـ/1095م، ليخلف تتش ولداه فخر الدين رضوان على حلب وشمس الملوك دقاق على دمشق، كأن الشام فى حاجة لإنقسام جديد،

والنتيجة أنه قبيل مجئ الحملة الصليبية انقسمت دولة السلاجقة إلى خمسة أقسام متناحرة وهم، سلطنة فارس وزعيمها السلطان بركياروق بن ملكشاه، مملكة خراسان وما وراء النهر وزعيمها أبو الحرث سنجر بن ملكشاه، مملكة حلب وزعيمها رضوان بن تتش، مملكة دمشق وزعيمها دقاق بن تتش، سلطنة سلاجقة الروم بالأناضول وزعيمها قلج أرسلان بن سليمان، ويضاف لذلك الأتابكيات التى ظهرت كرد فعل طبيعى لحالة الفوضى التى ضربت الشرق، كأتابكيات الموصل وحصن كيفا وأذربيجان وماردين

وأربيل، فلم يؤسس السلاجقة دولة مركزية بل كانت الدولة السلجوقية عبارة عن إتحاد ضعيف بين إمارات شبه مستقلة، زد على ذلك فشل السلاجقة والفاطميون فى إيجاد حوار مشترك فيما بينهما ،

هذا وبخلاف المدن الساحلية وجنوب الشام التى يسيطر عليها الفاطميون، عندما أستغل الفاطميون هـزيمة السلاجقة وسقوط أنطاكيا فهاجم الوزير الأفضل[21] بن بدر الدين الجمالى وزير الفاطميين القوى مدينة القدس وأجبر الأخوين سقمان وإيلغازى أبنى أرتق على تسليم المدينة 491هـ/1098م، كما أستقر جناح الدولة فى حمص، وكذلك الأمارات العربية الصغيرة ذات الإستقلال القلق مثل طرابلس تحت حكم أسرة القاضى أبن عمار بن أبو طالب، التى أنتهـز أميرها تقدم الفرنج وأخذ يوسع رقعة أمارته حتى مدينة طرطوس، وأنقسم الوادى الأعلى لنهـر العاصى بين خلف بن ملاعب الشيعى الأشهبى فى أمافيا بينما شيزر تحت حكم بنى منقذ الكنانيون، ومدينة الرحبة وهيت والكوفة بوسط العراق تحت زعامة صدقة بن دبيس بن مزيد، بينما بنو محرز يحكمون إمارتى المرقب وقدموس متناهيتى الصغر الواقعتين فى منطقة النصيرية، بينما حكم بنو عمرون إمارة الكهف، وحكم القاضى أبن صليحة مدينة جبلة، والجميع يستغل الإضطرابات الداخلية للحفاظ على إستقلالهم الهش، حتى أصبح المشهد السياسى بالشام مشهد فسيفسائى ،

وأدى إختلاف عناصر السكان فى الشام إلى حالة تشرذم وعدم تعاون أدت إلى الإنهيار السريع تحت وطأة الهجوم الفرنجى إذ شكل الأتراك أرستقراطية حاكمة متناثرة بين مدن الشام، بينما شكل العرب حكام المدن الصغيرة، ثم هذه الأسر الحاكمة لم تكن ذات تاريخ ممتد قبل ذلك، بل كانت عبارة عن بعض المغامرين الذين أستطاعـوا السيطرة على مدن وتوريث حكمها لأبناءهم لما لا يزيد عن جيل واحد فقط، مما أدى إلى طمع كل طامح فى إستلاب أحد المدن لتكوين إمارة له ولأسرته، فى وقت كثر فيه المغامرون الذين قدمهم نظام الإقطاع العسكرى الشرقى، بينما السكان توزعـوا بين مسلمين سنة من عرب وأتراك وأكراد وتركمان، وشيعة، والمسيحيين

[21] كان لقبه الرسمى "السيد الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه أبن السيد الأجل أمير الجيوش بدر المستنصرى" وهو أبن الوزير بدر الدين الجمالى، أستنابه المستنصر على مدينة صور ثم عكا ثم تولى الوزارة عقب وفاة أبيه 487هـ/1095م حتى وفاته 515هـ/1121م ،وإغتيل الأفضل على إيدى الحشاشين بالقاهرة 515هـ إنباء الأمراء بلأنباء الوزراء ص52

الشرقيين المتناحرين فيما بينهم والمختلفين عقائدياً، من سريان ونساطرة وأرمن مهاجـرين من الشمال، وموارنة، بينما أتباع الطائفة النصيرية والدروز معادين الجميع، والجميع فى صراع صاخب.

وقد أدى تعاقب الكيانات السياسية والأشخاص، السيطرة على المدن بشكل مستمر إلى عدم رسوخ أقدام أي من هذه القوى السياسية فى مدنها وأماراتها، الأمر الذى يبرر سرعة سقوط هذه الكيانات الهشة، الأمر الذى أدى إلى عـدم تكوين دولة مركزية قوية بالشام ،

الأمر الذى دفع الفاطميين للبحث عن التحالف مع الصليبيين، بينما أخذت الأسر العربية الحاكمة تنظر إلى الإنهيار السلجوقى بعين الإرتياح وأتخـذ الجميع موقف المراقب السلبى، الأمر الذى أدى إلى عدم قدرة الشرق الرد بالشكل الملائم على التوغل الصليبى، الأمر الذى أتاح للصليبيين التمتع بثروات الشرق الغنى، وإيجاد نقاط إتصال بالحضارة العربية المتقدمة، مما يعد اللبنة الأولى للنهضة الأوروبية ،

الأمر الذى خلق ظروف مواتية للصليبيين، فلنتخيل إعلان الحركة الصليبية قبل عشر سنوات كانت ستصطدم بالدول السلجوقية وهى مازالت فى عنفوان قوتها، الأمر الذى كان حتماً سيكتب النهاية للصليبيين فى مهدهم،

الإستيلاء على نيقية

بدء الجيش الصليبى التحرك فى أبـريل 1097م مصطحباً معه فصيلة من سلاح المهندسين التابع للجيش البيزنطى بقيادة تاتيكيوس، متجهاً إلى عاصمة السلاجقة مدينة نيقية ويبدو إن السلطان السلجوقى قليج أرسلان أعتقد تحت تأثير سهولة قضاءه على جموع بطرس بأستحالة تجرؤ الصليبيين على مهاجمة عاصمته، ولهذا كان مشغولاً فى أقصى شرق بلاده بمحاربة أمراء الدانشمند[22] للسيطرة على مدينة ملطية، بل ترك زوجته وأولاده داخل مدينة نيقية، ولم يستيقظ إلا والجيش الصليبى تحت أسوار عاصمته ،

[22] أمارة أسسها كمشتكين أحمد دانشمند أحد قادة ألب أرسلان ، والذى أشترك معه فى معركة ملاذكرد ليمنحه السلطان ألب أرسلان مدن سيواس وملطية ونيكسار ليحكمها بين عامى 477-573هـ/1084-1177م متخذاً مدينة سيواس عاصمة له

وأثناء زحف الجيش الصليبى مر بالوادى الذى هلك فيه جنود بطرس الناسك فكان مشهد بقايا عظامهم خير حافز للصليبيين لتوخى أقصى درجات الحذر، فتم إرسال الكشافة أمام الجيش حتى لا يُفاجئ بكمين، إلى أن وصل الجيش أسفل أسوار نيقية البالغة الحصانة بأسوارها التى تبلغ أربعة أميال، المحصنة بمائتين وأربعين برجاً والمطلة من جهتها الغربية على بحيرة هرسك الكبيرة، ويحيط الصليبيون بالمدينة، ويتم توزيع مهام الحصار على القوات، فعسكر جودفرى من جهتها الشمالية، وتنكريد بقوات خاله بوهيمند بالجانب الشرقى، والجانب الجنوبى من نصيب ريموند، ثم وصل جيش روبرت أوف نورماندى وستيفن كونت بلوا ليكتمل الجيش الصليبى، وإنتقل الأمبراطور ألكسيوس لمدينة بيليكانوم القريبه لمتابعة الأحداث بعد إرساله مندوباً عنه يسمى بوتوميتيس، وقامت حامية نيقية بمراسلة السلطان شارحه له الموقف وطالبه النجدة، ظل السلطان رابط الجأش فالصليبيين قد عجم عودهم العام المنصرم، وتلمس ضعفهم وقلة إمكانياتهم، فقام السلطان بإرسال جزء من جيشه كطليعة ريثما يتبعه هو بباقى الجيش، فحاولت قوة المدد فك الحصار عن المدينة فهاجمت جيش ريموند المرابط أمام السور الجنوبى ولكنها أضطرت للأنسحاب مفضلة إنتظار قدوم السلطان بباقى قوات الجيش،

ووصل السلطان بباقى الجيش ليهاجم الجهة الجنوبية مباشرة المتمركز فيها جيش ريموند، الذى تحمل عبئ المعركة هو وجيش روبرت أوف فلاندرز، بينما لم يغامر جودفرى وبوهيمند بترك أماكن تمركزهم، وبعد معركة دموية أنسحب السلطان تاركاً المدينة لمصيرها، فالسلطان السلجوقى من البدو الرّحل عاصمته هى خيمته، ومقدار قوته يقاس بالمحاربيين المنضمين تحت لواءه، لا بالمدن التى يسيطر عليها، أما بخصوص زوجته وأولاده فسوف تضمن المفاوضات أمنهم الشخصى ،

وعندما طلب الصليبيون من ألكسيوس إتمام الحصار بواسطة أسطول بيزنطي بالبحيرة التى أستخدمها المحاصرون فى إمداد المدينة بما هى فى حاجة إليه، أمدهم ألكسيوس بما طلبوه، بينما قامت مفاوضات سرية بين بوتوميتيس مندوب ألكسيوس وحامية المدينة حول الأستسلام، فالمدينة حتى وقت قريب كانت تابعه لبيزنطة قبل إستيلاء السلاجقة عليها، وألكسيوس حريص على تجنيبها ويلات إقتحام الصليبيون لها، وخصوصاً أن معظم سكانها من المسيحيين بإستثناء الحامية فقط، وبينما يقوم القادة الفرنجة

بالأعداد للقيام بهجوم عام على المدينة، فوجئوا برايات الأمبراطور ترفرف على أسوارها (26 يونيه1097م)، بعد تسلل جنود الجيش البيزنطى من المرتزقة الأتراك عبر البحيرة بالسفن التى طلبها الفرنج لإتمام الحصار، لتعود نيقية لأحضان بيزنطة بعد ستة عشر عاماً من إستيلاء السلاجقة عليها، ليتنفس ألكسيوس الصعداء بعد إبعاد الخطر السلجوقى عن عاصمته، وينظر الجنود الفرنجة بحسرة للنبلاء السلاجقة وهم يرحلون من المدينة بسلام، بعد أن طمعوا فى التحفظ عليهم للحصول على فدية لقاء إطلاق سراحهم، وصُدم الفرنجة لطريقة ألكسيوس المتسامحة مع أسرى السلاجقة، فقد رحلت السلطانة وأبناءها بمنتهى الأحترام فى إتجاة القسطنطينية، وأُرسلت رسالة للسلطان متساءله عن المكان الذى يود إرسال السلطانة وأبناءه إليه .

ولكى يخفف الأمبراطور من مرارة الصدمة الصليبية أغدق الطعام على الجيش، وأقام حفل فخم للقادة والنبلاء، وأخذ فى اغراقهم بين جبال من الذهب الذى أمطرهم به، بينما كان نصيب المشاة عملات نحاسية[23]، وطلب أستكمال يمين الولاء للنبلاء الصغار الذين لم يقسموا من قبل فوافق الجميع حتى تنكريد عندما أعترض وطلب ليقسم أن يملئ الأمبراطور خيمته ذهباً له، وقام بالأمساك بتلابيب زوج أخت الأمبراطور الذى اعترض على فظاظة تنكريد، ولكنه أقسم بعض توبيخ بوهيمند الحريص على تملق الأمبراطور ،

وقد كان الإستيلاء على نيقية باعث للبهجة والحبور فى نفوس الصليبيين ورافعاً من روحهم المعنوية، ليستمر زحف الجيش بعد أن تم تقسيمه لفيلقين، يسبق أولهما ثانيهما بيوم لعدم وقوع مشاكل فى التموين،

وحدث أشتباك أخر بين الفرنجة والسلاجقة عند ضوريليوم (أسكى شهر) حيث قام السلطان قلج أرسلان بالأتحاد مع أعداءه آل دانشمند لمواجهة هذا الخطر الجديد، وتم إجتماع قوى سلاجقة الروم فى سهل ضوريليوم لمنع تقدم الصليبيين، وتقابلوا مع طليعة جيش الصليبيين بقيادة بوهيمند (1يوليو 1097م) الذى فوجئ بقوات السلاجقة وأضطر للأشتباك معها، وكاد أن يسقط فى هزيمة ساحقة لولا أن أنقذه قدوم باقى الجيوش الصليبية، ليتغير مصير المعركة، وأنتهى هذا الأشتباك إلى هزيمة السلاجقة ونصر وإن كان مكلف للصليبيين، ويبدوا إنه بخلاف الضعف الذى كان يسرى بعروق الدولة

[23] تاريخ الحملة إلى القدس ص47

السلجوقية، كان تكتيك الصليبيين جديد بالنسبة للسلاجقة، فسهام السلاجقة التى طالما أثارت الرعب بالشرق، فشلت فى إختراق وسائل الحماية الصليبية التى أحالت فرسانهم إلى قلاع متحركة وإن أفقدتهم للرشاقة، وأن أقتنع الصليبيون بقوة السلاجقة وأنهم أعداء يجب أن يحترموهم، وقد حددت معركة ضوريليوم مصير اسيا الصغرى، فقد أنساح الصليبيون بحرية، ولم يحاول السلاجقة تجديد محاولة قتال الجيش الصليبى، تاركين هذه المهمة للطبيعة والمناخ القاسى، وكما أجبرت الخسائر الفادحة التى منى بها الصليبيين وخصوصاً قوات المقدمة، إلى إتباع تكتيك جديد فى الزحف، وذلك بالزحف بكامل الجيش كوحدة واحدة، وضم الكتائب بعضها البعض لضمان عدم إنفراد السلاجقة بأى قوات صليبية، وهو التكتيك الذى سيعتمد عليه الجيش الصليبي طوال مراحل الصراع بالشرق ،

وواصل الصليبيون زحفهم حتى أصبحوا فى شهر أغسطس أمام مدينة قونية المهجورة، وأن منحت الصليبيين ملاذاً أمناً لينعموا فى واديها الخصيب ببعض الراحة التى كانوا فى أمس الحاجة إليها، كما كانت المياه المتوفرة فيها هى أثمن ما يبحثوا عنه بعد المسافة التى قطعوها فى الصحراء والتى أفتقدوا فيها لما يرطب شفاههم، وأستمر الزحف حتى مشارف مدينة قيصرية فلاقى الصليبيون هناك جيشاً سلجوقياً سرعان ما إنسحب شرقاً، وهنا سنترك الجيش الرئيس ونصطحب صغار الأمراء الذين تعجلوا تحقيق ما جاءوا من أجله، فالحج لم يكن هو الهدف الأسمى لهم بل المهم هو تكوين أمارات، حتى إن حادت بهم عن طريق القدس ،

حلم الأمارة

قام تنكريد وبلدوين مصطحبين بعض الفرسان بالأنفصال عن الجيش الرئيس متجهين شرقاً نحو سهول كيليكيا (قيليقيا) الخصيبة بحثاً عن ما جاءوا من أجله، فتنكريد وبلدوين من صغار الأمراء ذوى الطموح والنسب وليس لهما أى أمل أو مستقبل بالغرب، والطريق إلى كيليكيا ممهد، فقد دُمر الأقليم بسبب الصراع للسيطرة عليه بين السلاجقة والبيزنطيين، مما أفسح المجال لهجرة الأرمن إليه والإستيطان به خلال القرن الحادى عشر، وقد كان الأرمن خير أعوان لبلدوين وتنكريد ضد أعداءهم السلاجقة، وقد بدء بلدوين مبكراً عندما تصادق مع أحد نبلاء الأرمن المسمى باجرات آملاً فى مساعدته

فى تكوين إمارة مستقبلاً، ولكن تحرك تنكريد المبكر أجبر بلدوين على الأسراع لينال بواكير نتاج الشرق ،

أنطلق تنكريد بفصيلة صغيرة مكونة من مائة فارس ومائتى من المشاة، وتحرك بعده بلدوين بخمسمائة فارس وألفين من المشاة، متخذين طريقين منفصلين أديا بهما إلى طرسوس التى وصلها تنكريد أولاً وحاول الإتصال بالأرمن المتواجدين داخل أسوارها، والذين يسروا مهمته فى السيطرة عليها بعد قيام حاميتها التركية بإخلائها، وعند وصول بلدوين رأى رايات تنكريد ترفرف أعلى أسوار طرسوس مما زرع الحسد فى قلبه، وهنا تحرش به بلدوين طالباً من تنكريد أن تكون السلطة فى طرسوس فى يده، فلم يجد تنكريد بُد من إخلاءه لطرسوس لأنه لم يكن ند لبلدوين وجيشه، فتوجه إلى أدنة، وبعد سيطرة بلدوين على طرسوس وطرده لتنكريد منها وصل لطرسوس ثلاثمائة فارس نورماندى جاءوا كمدد لتنكريد من الجيش الرئيس، فأغلق بلدوين أبواب طرسوس فى وجوههم رافضاً السماح لهم بقضاء الليل فى حماية أسوارها ولم يشفع لهم أنهم زملاءه بالجيش المقدس ولا توسلاتهم، فأضطروا لأقامة معسكرهم فى العراء خارج أسوار طرسوس، لتهاجمهم فصيلة تركية كانت بالجوار أثناء الليل مما نتج عنه ذبح المدد الصليبى عن بكرة أبيه ،

وظهر أمام شواطئ كيليكيا أسطول قرصان يسمى ونمار البولونى، ينتمى لبلدة بلدوين فقدم لبلدوين ثلاثمائة رجل شكّل منهم حامية لطرسوس، ليخرج بلدوين متجهاً شرقاً،

أثناء ذلك حث تنكريد الخطى ليصل مدينة أدنة ويحتلها بعد إخلاء الأتراك لها أيضاً، ثم يلحق بها مدينة المصيصة فى أكتوبر1097م بمساعدة الأرمن، ليلحق به بلدوين عند هذه المدينة، ليعامله تنكريد بنفس المعاملة التى عامل بها بلدوين رجاله من قبل أمام طرسوس، فرفض السماح لبلدوين بالدخول داخل المدينة، ليس هذا فحسب بل هاجم النورمان تحت قيادة تنكريد وريتشارد زوج أخته، جيش بلدوين للأنتقام منه على مقتل مواطنيهم بطرسوس، ليظهر الوجه الحقيقى للصليبيين، وإستطاع بلدوين وجيشه صد الهجوم وإجبارهم على الفرار بعد خسائر فادحة للطرفين، وإن أفسح بلدوين وتنكريد مجالاً للصلح وإيقاف القتال وتبادل الأسرى ،

تبين هذه الحادثة حقيقة الأهداف وراء خروج الجزء الأكبر من المشتركين فى الحملة الصليبية، كما تبين عدم إستعداد الفرنجة للتعاون إلا فيما يحـقق أهدافهم الشخصية فقط، أما ما دون ذلك فالقتال هو الحل، مما يعد إنتقال أسلوب حل الإقطاعيين الأوروبيين لمشاكلهم بالغـرب، والأنانية والنفعية المسيطرة عليهم، فقد ترك بلدوين وجيشه زملاءهم تأكلهم سيوف المسلمين اسفل أسوار طرسوس، كما تقاتل زملاء السلاح بالجيش المقدس بعد ذلك بجوار مدينة أدنة،

وإن إضطر بلدوين للألتحاق بالجيش الرئيس عند ورود أخبار بإحتضار زوجته ومرض إبنائه، ثم سرعان ما إنفصل عن الجيش ثانيةً بعد موت زوجته وأولاده ليجرب حظه بشمال العراق مصطحباً قوة أقل مما كانت معه قبل ذلك، فلم يصحبه إلا مائة فارس فقط، وفى هذه الأثناء أستطاع تنكريد الإستيلاء على الأسكندرونة بمساعدة أسطول القرصان ونمار مما أتاح ميناء هام جدا للصليبيين، ثم يلتحق تنكريد بالجيش الرئيس تاركاً الساحة خاليه أمام بلدوين زميله اللدود ،

ونلحق الأن ببلدوين الذى تناسى أن الهدف الرئيسى للحملة جنوباً حيث بيت المقدس، وليس تكوين لوردية بشمال وادى الفرات، ونجح بلدوين فى الإستيلاء على بعض القلاع بسبب مساعدة الأرمن الذين كانوا يشكلوا الغالبية بين سكانها من جهة، ومن جهة أخرى قلة عدد الحاميات التركية بهذه القلاع، فتم له الإستيلاء على روندان وتل باشر، وعهد بلدوين بذكاء بقيادة المدن التى أستولى عليها لأمراء من الأرمن مما نما ثقة الأرمن فيه، وهناك وافته رسل أمير مدينة الرها (أورفا) المسن ثوروس بن هيثوم أمير الرها الأرمنى، الذى كان يشعر بضعف قوته عن الوقوف فى وجه التهديدات التركية وكما خشى على مستقبل أمارته بسبب شيخوخته، وعدم وجود وريث له، ثم كانت أنباء إستعدادات قوام الدولة كربوقا أتابك الموصل القوى لنجدة أنطاكيا، مما يعنى ضرورة مرور جيشه بالرها مما يعرضها للدمار، دافعاً قوياً لألحاح ثوروس على بلدوين بضرورة إسراعه لحماية الرُها مقابل راتب سنوى، ينضم لهذا خوف ثوروس من أبناء جلدته الأرمن بسبب كراهيتهم له لإتّباعه الكنيسة البيزنطية، وكان يطمع فى الأستعانه ببلدوين كمرتزق لحمايه أمارته، وإن كان بلدوين يتطلع لأكثر من ذلك، فقد كان يرنو إلى أن يكون لورد وليس مرتزق بالأجر، ورأى أنه ليس هناك أفضل من الرُها لتكون نواة لورديته،

فأستعمل سياسة النفس الطويل ولم يعلن موافقته على التوجه مباشرة إلى الرها، لعل أمير الرها الشيخ العجوز يفقد صبره مما يسمح لبلدوين بفرض شروطه لتولى حماية المدينة الهامة، بالفعل دفع خوف ثوروس من الأتراك إلى عرض إتخاذه بلدوين أبناً بالتبنى مع جعله ولى عهده ووريثه إذا ما أستقر بالرها وتولى الدفاع عنها، وهذا ما كان يتمناه بلدوين فوافق على الفور، وينصب ثوروس بلدوين كولى عهده بيد، ويحفر قبره باليد الأخرى ،

فبراير 1098م يمم بلدوين وجه للرها مصطحبا معه ثمانين فارساً فقط[24]، ونجح فى تفادى كمين نصبه له حاكم سميساط، بعد الإختباء ليلتين فى قلعة أرمينية[25]، ووصل بلدوين بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين للرها وسط إستقبال حافل من الأمير الشيخ وأهالى أمارته، وتم إجراء حفل التبنى بالكنيسة، وتم تنصيب بلدوين رسمياً شريكاً ووريثاً لثوروس، الذى يستطيع الأن الأطمئنان فى حماية ولده ومنقذه بلدوين، وحاول بلدوين إظهار أهميته للرها فقام بتشكيل حملة مكونة من فرسانه ومشاة أرمن ضد سميساط القريبة من الرها، والتى كانت شوكة فى جنب أرمن الرُها، ولكن الحملة فشلت ومنيت بخسائر فادحة بسبب فرار الجنود الأرمن حتى بلغت الخسائر حوالى ألف جندى أرمنى ،

ولكن هل يرضى بلدوين بالأنتظار حتى يصبح حاكم الرها منفرداً، أم سيتعجل هذا الأمر؟ لن يطيل بلدوين إنتظارنا لمعرفة الأجابة، فقد تم التخطيط للقيام بمؤامرة ببث روح الكراهية لثوروس بدعوى ضعفه عن حماية المدينة بينما يوجد من هو أجدر منه على القيام بهذه المهمة، كما رُوجت أخبار عن الصلات الوثيقة التى تربط بين ثوروس وبيزنطة وإعتناق ثوروس المذهب الأرثوذكسى، مما نتج عنه تحرك جماهيرى للأطاحة بثوروس بمباركة أبنه بلدوين، وعندما تحركت الجماهير الغاضبة للفتك بأميرهم الشيخ فى 2ربيع الأخر 491هـ/7مارس 1098م تقاعس ولده ومنقذه عن القيام بواجبه فى حمايته، فتم الفتك بثوروس ليعقبها الدعوة من أهالى الرها لبلدوين لتولى زمام الحكم بالمدينة ،

[24] تاريخ الحملة إلى القدس ص52
[25] السابق

وعمل بلدوين على كسب تأييد الأرمن فقام بالزواج من الأميرة أردا أبنة أحد النبلاء الأرمن وشجع فرسانه على الزواج من أرمنيات،

وهكذا نجح بلدوين فى تحقيق أماله فى تكوين أمارة له، وإن جاءت بعيدة عن الأراضى المقدسة، بل فى أعالى الفرات، كما لم يتم إنتزاعها من أيدى المسلمين بل تم التخلص من حاكمها المسيحى التابع ولو أسمياً للأمبراطور ألكسيوس، والذى أرتبط معه بلدوين بقسم بإرجاع الأراضى التى كانت تابعة لبيزنطة من قبل، فبلدوين لم يحترم قسمه مع الأمبراطور ولا إتفاقه مع ثوروس، وقد أظهرت هذه الحادثة أن النبلاء الصليبيين لم يكونوا على إستعداد لإحترام إيمانهم مع القسطنطينية ولن يلتزموا إلا بمصالحهم الشخصية، وأن أثبت بلدوين لباقى الأمراء الصليبيين الشرهين للسلطة والثروة، إمكانية تكوين أمارات لاتينية تحت شمس الشرق الساطعة، مما أشعل نيران حماستهم ليحثوا خطاه لعلهم يفوزا بما فاز به، وكما أثبت قيام إمارة فرنجية بالرها للأرمن المسيحيين مدى الدمار الذى جلبته معها الحملة المقدسة على جميع سكان الشرق مسلميه ومسيحيه،

أتخذ بلدوين لقب كونت الرُها، هذا اللقب الذى حرم من مجرد الحلم به فى الغـرب، ولكن واجهته مشكلة ضعف قواه العسكرية، فالفرسان الذين صحبوه كانوا مجرد شرذمة قليلة العدد فحاول الأعتماد على الأرمن، وأستمراراً فى مسلسل الضعف الشرقى سارع حاكم سميساط التركى "بلدق" بعرض مدينته للبيع لبلدوين بعشرة ألاف عملة ذهبية، ولم يجد بلدوين أدنى صعوبة فى توفير هذا المبلغ بسبب الكنوز التى وجدها فى خزائن ثوروس، فتم شراء سميساط مع ضم بلدق وحرسه للعمل كمـرتزقة لدى بلدوين، وجذبت نجاحات بلدوين أعداد كبيرة من فرسان الجيش الصليبي للأنضمام إليه للفوز بجانب من غنيمة الرها، وأستطاع بلدوين توسيع كونتيته بالأستيلاء على مدينة سروج الواقعه جنوب الرها، والتى كان صاحبها أمير من الأراتقة يسمى نور الدين بلك بن بهرام بن أرتق، وقد حاول هذا الأمير الأرتقى الأستفادة من بلدوين فطلب منه المساعدة ضد رعاياه أهالى سروج الذين لم يدفعوا ما عليهم من ضرائب فتوجه بلدوين إليه ويساعده بالإستيلاء على أمارته وعزله عنها،

وقد كانت النجاحات التى حققها بلدوين خير دعوة للعديد من الفرسان الباحثين عن إقطاعات للمجئ للرها، وهو ما شجعه بلدوين وقام بالإغداق على هؤلاء الفرسان بالأموال والأقطاعات، مما أدى إلى تكوين أرستقراطية عسكرية

لاتينية تحكم مواطنى الرها الأرمن، الذين وجدوا أنفسهم تحت نير نظام الإقطاع الغربى، بسبب إستيلاء الصليبيون على ضياع الرها وحقولها الزراعية، وقيام بلدوين بحجز كافة الأماكن الهامة وحتى الثانوية فى الإدارة لقومه اللاتين، وكذلك وجدوا أن الضرائب التى فرضها بلدوين هى نفسها التى أضطروا لدفعها لثوروس، كما كره الأرمن إيثار بلدوين بنى جنسه الفرنج بالمناصب الكبرى السياسية والعسكرية، ومنحهم الإقطاعات الضخمة التى حرم منها أصحابها الأرمن، مما دفعهم لمحاولة التخلص من بلدوين ورجاله الذين أتوا من الغرب لحمايتهم وإنقاذهم، وقاموا بالإتصال بالأراتقة المسلمين للحصول على مساعدتهم ضد محرريهم، ومن ضمن المتأمرين "تفنوز" صهر بلدوين، وهو ما أكتشفه بلدوين وتعامل معه بمنتهى القسوة ضد المتأمرين من أرمن الرها 26ديسمبر1098م، بعد القبض عليهم، فقام بسمل أعين البعض، وقطع أطراف أخرين، وجدع أنوف غيرهم، وقتل الباقى، والأهم مصادرة أموال الجميع، بينما تفنوز يفر للجبال خوفاً من صهره الرهيب ،

الطريق إلى أنطاكيا

ونترك بلدوين ينعم بإمارته الجديدة ونعود للجيش الصليبى الرئيس، فقد كان الإستيلاء على أنطاكيا خيار إستراتيجى صليبى، فلم يكن من الممكن ترك هذه القلعة الضخمة خلف ظهورهم خلال زحفهم إلى القدس، ثم هى أول مدن الشام من الجهة الشمالية، مما يمكنها من التأثير على من يريد العبور للشام أو منه، وكانت أنطاكيا تابعه لصاحب حلب رضوان بن تتش ويتولى الحكم فيها الأمير ياغى سيان التركمانى نائباً عنه، والذى كان زرع بذور الخلاف بينه وبين سيده رضوان بن تتش حينما ساعد عدو رضوان وشقيقه اللدود دقاق بن تتش حاكم دمشق، مما حرم أنطاكيا من مساعدة أقرب القوى الأسلامية لها ،

وعند إقتراب الجيش الصليبى من أنطاكيا تسبقه أخبار إنتصاراته على سلاجقة الروم، كان يسيطر على أكبر مدينتين بالشام أخوان أمتلك قلبيهما كرهاً متبادل، دقاق بن تتش فى دمشق، وأخيه اللدود رضوان بن تتش بحلب، وقد حاول رضوان مهاجمة دمشق لإستلابها من أخيه، فى الوقت الذى رضى فيه أخيه دقاق بدخوله تحت طاعة أعداءه الفاطميين لينال مساعدتهم فى قتال أخيه والإستيلاء على حلب، ليسارع رضوان إيضاً بإعلان خضوعه للدولة الفاطمية ويخطب خطباء حلب بأسم الخليفة الفاطمى، فى الوقت التى يفر من

رضوان زوج أمه الأمير جناح الدولة ويستولى على حمص وينادى بإنفصاله عن حلب،

فيبحث أمير أنطاكيا ياغى سيان عن حلفاء ضد الخطر المشترك على الجميع، ولم يستطع رضوان أمير حلب والتابع له أمير أنطاكيا قراءة الوضع وتناسى خيانة ياغى سيان له وتمسك بأنانيته وعناده رافضاً مساعدة أنطاكيا، وإن وافق على تقديم هذه المساعدة الأمير دقاق بأرسال جيش من دمشق لإنجاد المدينة بعد إستقباله لشمس الدولة أبن ياغى سيان الذى أرسله والده مستنجداً، وكما وافق قوام الدولة أبو سعيد كربوقا أتابك الموصل على مساعدة ياغى سيان عقب إستقباله أبن ياغى سيان الثانى الأمير محمد، طمعاً فى السيطرة على أنطاكيا مما يضمن له حصار حلب الطامع فى الإستيلاء عليها، كما كاتب ياغى سيان وثاب بن محمود زعيم قبيلة بنى كلاب، وجناح الدولة حسين حاكم حمص، بينما تجنب مكاتبة سيده رضوان صاحب أنطاكيا نظرياً، بسبب الخلافات بينهما،

ووطن ياغى سيان نفسه على حصار طويل فجمع كل قواته البعيدة عن الضخامة (حوالى ستة ألاف فارس) داخل أسوار مدينته بالغة المتانة، والتى تجعل إقتحام أنطاكيا من الصعوبة بمكان، وأثناء تقدم الفرنجة لأنطاكيا أستولوا على عدد من المدن والبلدات الصغيرة، كما أستولى جيش ريموند تحت قيادة إديمار على الجسر الذى يعبر نهر العاصى الفاصل بينهم وبين أنطاكيا مما مكنهم من عبوره فأصبحوا وجهاً لوجه أمام أسوار المدينة، تلك الأسوار التى تركت الصليبيين مندهشين من ضخامتها والأربعمائة برج الذين يزينوها ، وبسبب طول أسوار المدينة لم يستطع الصليبيون حصارها بشكل كامل، كما لم يستطع ياغى سيان تغطية الأسوار جميعاً بالمدافعين عنها، فأنطاكيا كانت يحتضنها جبال شاهقة من الشرق والجنوب ويمر نهر العاصى من جهتها الغربية، ويكتنفها من الشمال مستنقعات وأحراش، مما سيطيل حصار أنطاكيا لمدة سبعة أشهر (21أكتوبر1097م – 3 يونيه 1098م)، فقد كان إقتحام المدينة مستحيل، فلم يعُد هناك طريق إلا الخيانة فقط ،

وأراد ريموند شن هجوم خاطف للإستيلاء على المدينة، ولكن مشهد أسوار أنطاكيا المهيب دفع الجميع للرفض وخصوصاً بوهيمند الذى كان يرى أنطاكيا خير نواة لأمارته المنشودة، فكان يريد أن يكون له فقط الفضل فى الإستيلاء عليها ليكون له الحق بالمطالبة بتولى حكمها منفرداً، وتم منح جبهة

القتال فترة هدوء كان الطرفان فى أمس الحاجة إليها، الصليبيون بعد عبور أسيا الصغرى المرهق ولإنتظار وصول التعـزيزات، وياغى سيان لأستكمال إجراءات الدفاع وأنتظار النجدة الموعود بها، وبالفعل وصل أسطول صغير من جمهورية جنوا من ثلاثة عشر سفينة مكدسه بالرجال والسلاح، وقام هذا الأسطول بالإستيلاء على ميناء السويدية، الواقع بجوار أنطاكيا ،

وتحرك الصليبيون بمنتهى الأريحية والحرية، بينما على مقربة منهم قوات حلب ودمشق، ولكن غلب حقد الأخوان دقاق أمير دمشق ورضوان أمير حلب، الأخوة الأعداء فشلوا فى نسيان خلافاتهما والإتحاد لمجابهة الغزاة، بينما لو قدموا المصلحة العامة على الخلافات الضيقة لأمكن وضع القوات الصليبية بين مطرقتهم وسندان قوات أنطاكيا ،

وكان العنصر الغالب على سكان أنطاكيا هم الأرمن والسـريان، الأمر الذى خشى منه ياغى سيان أن يمدوا يد العـون للغزاة، فأخرج النصارى من سكان أنطاكيا خارج الأسوار قبيل وصول الصليبيون بحجة حفر خندق يحيط بالمدينة، وأسرع بإغلاق أبواب أنطاكيا فى وجه سكانها وتركهم يرتمون فى أحضان الصليبيين ،

تمركزت الجيوش الصليبية بالقطاع الشمالى الشرقى لأنطاكيا، وتم بناء جسر من القوارب لعبور نهر العاصى، لفتح طريق للساحل والأسكندرونة لتلقى أى تعزيزات قد تصل من الغـرب، ولم يضيع بوهيمند الوقت بل أخذ فى البحث عن أى طريقة للإتصال بمن داخل المدينة، ولم يطل بحثه فاللاجئون المسيحيون المبعدون عن المدينة وفروا له قنوات إتصال بأقربائهم داخل أسوار أنطاكيا، ولم يقف ياغى سيان مكتوف الأيدى بل أخذ فى الدفع بقواته خارج أسوار أنطاكيا من خلال البوابات التى لم يغطها الحصار لمهاجمة الباحثين عن الأمدادات والأعلاف من الجيش الفرنجى، فقد دفع السكون العسكرى لقوات أنطاكيا، الصليبيين للتحرك بمنتهى الحرية، وقد أستغل ياغى سيان هذه الحرية التى يتحرك بها الصليبيون، فعندما شاهد ياغى سيان من أعلى أسوار أنطاكيا تحرك كتيبة صليبية من ثلاثمائة فرنجى من الفرسان والمشاة للبحث عن مواد الإعاشة وعلف مطاياهم، وما أن عبرت هذه الكتيبة جسر نهر العاصى حتى خرجت كتيبة من فرسان أنطاكيا وتفتك بالكتيبة الفرنجية، ليحاول من نجا من فرسان الفرنج الفرار فى إتجاة معسكر جيشهم، واثناء عبورهم جسر نهر العاصى تهاوى أكثرهم فى قاع النهر لثبتهم

دروعهم الحديدية فى قاعه غرقى، وما أن يصدم مشهد فرسان الفرنجة المتساقطين بالنهر حتى أندفع زملاءهم الذين كانوا بالمعسكر للثأر لهم، وعبروا النهر ليتلاقوا مع فرسان أنطاكيا بالقرب من بوابة المدينة، لتدور معركة بين فرسان الفريقين، ولكن فرسان الفرنج لا تحسن العمل بعيدة عن مشاتها، لتدور الدائرة عليهم، ليقتل من يقتل من فرسان الفرنج ويهرب الباقى فى إتجاة معسكرهم ويبتلع النهر المزيد منهم ،

ولضخامة الخسائر الصليبية من القتلى خلال بحثهم عن الأعلاف وغيرها من مواد الأعاشة قام الصليبيون ببناء برج قوى جمعوا أحجاره من شواهد القبور بالمنطقة، لمنع تسلل أى قوات للأغارة عليهم، على أن يتولى رجال كل قائد مسئولية الدفاع عن البرج بالتناوب وأطلقوا على البرج برج مالريجارد، كما جعل الأفرنج بينهم بين أنطاكيا خندقاً لكثرة الغارات عليهم[26]

وفى أوائل 1097م أوشك مخزون المواد التموينية والطعام الخاص بالفرنجة على النفاذ، وأطلت المجاعة بوجهها البشع عليهم، وأدى إستنزاف الفرنج للمناطق المجاورة لأنطاكيا إلى نفاذ كل ما يؤكل منها، فقرر القادة المجتمعون أرسال بوهيمند وروبرت أوف فلاندرز بقسم من الجيش للبحث عن أى طعام يستطيعوا نهبه وإختلاسه من القرى الواقعة فى وادى العاصى إتجاه حماة، وبعد رحيل القائدان على رأس عشرين ألف جندى وعامل، حاول ياغى سيان إنتهاز الفرصة بالهجوم على القوات المتبقيه للحصار، ففى نهاية شهر يناير 1097م هاجم جيش أنطاكيا الصليبيين ليلاً محدثاً بهم خسائر، حتى كاد أن يشتت جيش الصليبيين، ولكن صمود ريموند الذى قام بهجوم مضاد أوصل جيش أنطاكيا لأبواب مدينتهم، قبل قيامهم بهجومهم المضاد الذى أوقع خسائر فادحة بصفوف الفرنجة، كما أصيب جيش أنطاكيا بخسائر لا يستطيع تعويضها، وأن لم تحسم هذه المعركة الموقف ،

أما جيش بوهيمند وروبرت فقد تعرض لهجوم جيش دمشق بقيادة دقاق وأتابكه طغتكين وشمس الدولة بن ياغى سيان وأمير حمص جناح بن ملاعب الذين كانوا فى طريقهم لإنقاذ أنطاكيا، وعندما علموا بموقع جيش بوهيمند وروبرت بقرية البارة هاجموه فى 30ديسمبر1097م، وأوقعوا بقوات روبرت المتقدمة خسائر فادحة قبل أن ينقذه بوهيمند، وأن إصيب الجانبان

[26] تاريخ دمشق ص219

بخسائر فادحة مما تعذر على آياً منهما إتمام مهمته، فأنسحب بوهيمند وروبرت فى إتجاه أنطاكيا خاليا الوفاض بدون طعام، وأنتظر جيش دقاق الجيش القادم من الموصل بقيادة كربوقا لأنقاذ أنطاكيا،

تأزم موقف الفرنجة أمام أنطاكيا وعض الجوع بأنيابه الحادة الجيش، وتساقط الجنود قتلى براثن الجوع، وتنهار الجياد الهزيلة تحت وطأة المجاعة حتى لم يتبقى منها سوى سبعمائة حصان، ولكن أين المفر فلم يكن هناك طريق للعودة بل لم يأمن أحد للأبتعاد عن الجيش المرابض أسفل أسوار أنطاكيا، لو كان هناك قليل من الأتحاد بين أمراء الشرق لأمكن بمنتهى السهولة القضاء على الجيش الفرنجى وأستئصال شأفته وهو يترنح تحت لكمات الجوع،

حتى يقوم الفرنج بطرد النساء الذين أصطحبوا الجيش من أوروبا لإعتقادهم أن إنحلالهم الأخلاقى هو السبب فى هذه المجاعة[27]، ولكن بالرغم من الضعف البادى على جيش الفرنجة فالعرب كانوا أضعف لفشلهم قراءة الأحداث ونسيان عداءاتهم، وأخذ العديد من الجنود الهرب من الجيش أمام أنطاكيا باحثين عن ملاذ أمن لعلهم يجدوا فيه ما يقيم أودهم، والمفاجأة هو هروب أول الداعين للحرب المقدسة وقائد أول موجاتها والذى قُتل الألاف ممن أتبعوا دعوته وساروا تحت لواءه، أنه بطرس الناسك، لم يحتمل مشاق الحصار وجبن أمام أنتشار أخبار قدوم جيش النجدة لفك الحصار عن أنطاكيا، جبن عن مواجهة القتل فى الحرب المقدسة للوصول لبيت المقدس، وتبعه فى هروبه بعض كبار الفرسان ومنهم وليم النجار كونت ميلان قبل أن يلقى تنكريد القبض عليهم بعد مطاردتهم وإعادتهم لصفوف الجيش، وأن حرص القادة على عدم هز صورة بطرس أمام الجيش حرصاً على معنوياتهم، وأن أُجبر باقى الهاربين ـ بعد توبيخ بوهيمند لهم ـ على القسم بعدم الهروب مجدداً وملازمة الجيش حتى وصوله للقدس،

وبينما تأزم الموقف تماماً وحاصرت الصليبيين مخاطر جمة، كان بوهيمند الطموح مايزال سائراً فى مخططه فى تكوين أمارته بأنطاكيا، ويحاول رسم صورة له كقائد أعلى للقوات الصليبية، فهو لم ينظر لهذه الحرب إلا كفرصة تساعده على إنشاء مملكة له والتى حرم من تكوينها بالغرب، ولكن كان يجب عليه العمل على التخلص من المندوب الأمبراطورى تاتيسيوس، فوجوده

[27] تاريخ الحملة إلى القدس ص55

يعنى تسليمه جميع المدن التى كانت تابعه لبيزنطة قبل إستيلاء السلاجقة عليها وهو ما ينطبق على أنطاكيا، فكان يجب غيابه عن مشهد سقوط أنطاكيا، فقام بمخاطبته فى صورة الناصح بوجود نوايا من جنود الجيش لقتله بسبب تقاعس الأمبراطور عن مد يد العون لهم فى محنتهم أمام أنطاكيا، بينما أشاع بين صفوف الجيش أخبار بخيانة بيزنطة ومندوبها للقضية الصليبية بقيامه بالإتصال بالأتراك، مما دفع تاتيسيوس للهرب لعاصمته بحراً عن طريق قبرص، وما أن حدث هذا حتى أخذ دعاة بوهيمند فى نشر خبر هروب مندوب الأمبراطور جبناً، تاركاً عبء الإستيلاء على أنطاكيا على كاهل الفرنجة، مع بث أقاويل بإن سبب معاناة الصليبيين هو تقاعس ألكسيوس عن الألتزام بوعوده ومجيئه لمساعدتهم فى إقتحام المدينة المحاصرة، مما يدحض أى دعوى بيزنطية لإستعادة أنطاكيا ويحل الصليبيين من أى ألتزام أمام ألكسيوس،

وأختار بوهيمند وقت تكالب المصائب والأخطار على الجيش الصليبى لتنفيذ الجزء الثانى من مخططه، هو إشاعته بحتمية عودته لإيطاليا مصطحباً جيشه بسبب إلتزماته الملحة فى الغرب، والتى لا يجد أى مقابل بالشرق لألقاء هذه الألتزمات وراء ظهره، وإن سرت فى الجيش إشاعة بإن بوهيمند سيوافق على إستمراره فى الشرق إذا مُنح كونتية أنطاكيا كتعويض عن خسائره بالغرب بسبب تغيبه بالشرق، وإن لم تنطلى هذه الخدعة على كبار القادة إلا إنها وجدت أذان صاغية بين عامة الجيش الذى تملكه الفزع من فكرة غياب بوهيمند وجيشه، وإن كان الأمراء ما عدا ريموند لم يهتموا بمن ستصير له أنطاكيا قدر إهتمامهم بإنتهاء وضعهم الصعب أسفل أسوارها، وهكذا لم يعد أما بوهيمند للفوز بأنطاكيا إلا إظهار مقدرته ومواهبه فى الإستيلاء عليها ،

وأثناء ذلك شعر رضوان بن تتش صاحب حلب بخطأه بالتراخى عن نجدة أنطاكيا، فحاول تجاوز خلافاته وحقده القديم على تابعه ياغى سيان وقرر مد يد المساعدة لشمس الدولة أبن ياغى سيان وقبول ملتمسه بالمعونة، فقام بتشكيل جيش من قوات دمشق والأمير سكمان بن أرتق والأمير أرسلان تاش أمير سنجار وقوات شيزر وحماة وحمص، وعسكر به عند مدينة حارم إستعداداً للزحف لفك الحصار، وما أن أعلم كشافة الفرنجة قادتهم بهذا الجيش حتى عقدوا إجتماع أسفر عن خطة تقضى بخروج جميع فرسان الجيش لمهاجمة النجدة قبل وصولها لأنطاكيا، وإستمرار المشاة بالحصار، وبالفعل

تسلل فرسان الفرنجة ملتحفين بظلام الليل، وتم عمل كمين بجوار الجسر العابر لنهر العاصى، وما أن تقدمت قوات النجدة الدمشقية حتى فاجأها فرسان الفرنجة بعد أن قاموا بتقسيم قواتهم لستة كتائب، وقاموا بهجوم عام قوى أضطرت النجدة تحت ضغطه إلى الأنسحاب لدمشق بعد قتال دامى أستبسل فيه رضوان وجيشه، وفى هذه الأثناء خرجت حامية أنطاكيا مهاجمه المشاة الفرنجة مستغله غياب الفرسان، دافعه أمامها مشاة الفرنجة من مواقعها حتى كادت أن تقضى عليهم، وما أن ظهرت رايات فرسان الفرنجة حتى تأكدت حامية أنطاكيا أنهزام النجدة القادمه إليهم فسارعوا الخطى لداخل أسوار مدينتهم، ليزداد يقين الفرنجة من ضعف القوى الإسلامية بسبب تشرذمها وتفككها، وعدم قدرتها على العمل المشترك ،

وبلغت لأسماع الصليبيين فى 4مارس1098م وصول أسطول إنجليزى لميناء السويدية القريب، يحمل كل ما الجيش فى حاجة إليه، جنود إيطاليين وأنجليز، مواد بناء، أخشاب لصنع معدات الحصار، ولكن تكمن مشكلة وصول حمولة الأسطول لأنطاكيا سالمة وضمان عدم تعرضها لكمين من حامية المدينة، وبسبب إنعدام الثقة بين أكثر الأمراء طمعاً فى أنطاكيا، بوهيمند وريموند، رفضا إنفراد آياً منهما بقيادة قوة تأمين حمولة الأسطول وزحفا معا للميناء، وفى طريق عودتهما محملين بحمولة الأسطول وقعا فى كمين نصبته فصيلة من حامية أنطاكيا، فهربا تاركين حمولة الأسطول فى أيدى قوات أنطاكيا، ووصل بعض الفارين للجيش الرئيس فسارع جودفرى لأنقاذ الأحمال بعد ما قص عليه الفارين نبأ مقتل بوهيمند وريموند، فقام جودفرى بتجميع كافة فرسان الفرنج ومعه كبار القادة الصليبيين وعبور نهر العاصى، فخرجت عليه فصيلة أخرى من أنطاكيا لتأمين وصول قوات الكمين المنتصر لداخل المدينة بغنائمها الثمينة، فقاتل جودفرى هذه القوات حتى ردها لداخل أنطاكيا ثم أستدار لقتال قوات الكمين وهنا ظهر بوهيمند وريموند الذين يبدوا أنهما أختفيا بعد هزيمتهما حتى تشجعا بظهور جودفرى وقواته وتعاونوا حتى تم هـزيمة قوات الكمين المثقلة بالغنائم وأستعادوا الحمولة النفيسة،

ونظرا لخطورة وجود بوابة من بوابات أنطاكيا غير محاصرة قام الصليبيون بتشيد برج أمام هذه البوابة لمنع المرور منها، مما يعنى أن حصار أنطاكيا أكتمل ببناء هذا البرج، وتطوع ريموند بتوفير خمسمائة جندى للتمركز به وحراسته، كما قام الصليبيون ببناء برج أخر عند أخر بوابة غير محاصرة،

وتم تكليف تنكريد بحراسة هذه البوابة مقابل مائة فرانك دفعها ريموند وأربعون مارك تدفع شهرياً لتنكريد من ميزانية الجيش، الأن فقط لم يكن فى مستطاع حامية أنطاكيا الدخول أو الخروج ويجب عليها الأعتماد على مخزونها للأعاشة خلال الحصار،

ولم تكتفى القيادات السياسية بالشرق الأدنى فى هذا الوقت بتشرذمها وعدم إتحادها، بل أمتلكت من قصر النظر وعدم القدرة على قراءة الموقف ما دفعها لمحاولة التحالف مع الصليبيين ضد أعداءها من بنى جلدتها، ففى أبريل 1097م أرسل الأفضل شاهنشاه بن بدر الدين الجمالى وزير الخليفة المستعلى الفاطمى من مصر رسالة وديه للجيش المحاصر لأنطاكيا، عارضاً التحالف والعمل المشترك ضد السلاحقة، على أساس تقسيم ممتلكات السلاجقة فى الشام بحيث يصبح شمال الشام للصليبيين وجنوبه للدولة الفاطمية، لإعتقاده إن الصليبيين لم يحضروا للشام إلا لإعادة سيطرة الامبراطورية البيزنطية على الأراضى التى أستولى عليها السلاجقة، وهو ما ينطبق على أنطاكيا وشمال الشام، وأمتلك الصليبيون من الذكاء السياسى ما جعلهم يحسنون إستقبال الوفد الفاطمى، بل ويرسلون بدورهم سفارة للقاهرة محملة بهدايا ثمينة مع رسالة ودية للأفضل، ليخلوا بال الصليبيين من جهة الجنوب حتى حين،

بينما تنتشر بين جنبات المعسكر الصليبي أنباء إقتراب جيش إنقاذ أنطاكيا بقيادة كربوقا أتابك الموصل في مايو 1097م، الذى يبدوا أنه كان من القادة العسكريين أصحاب القدرات العسكرية المتوسطة، وكما أتصف بكثير من الغرور والصلف والتعنت، فقد أضاع ثلاثة أسابيع ثمينة بمحاولة القضاء على بلدوين المختبئ خلف أسوار الرها القوية، بالرغم من ضعف قدرات قوات بلدوين، ثلاثة أسابيع كانت كافية بوضع الجيش الصليبى بين شقى الرحى، قوات كربوقا من جهة وحامية أنطاكيا من جهةٌ أخرى، مما كان سيضمن الأنتصار على الفرنجة، وعندما أيقين كربوقا بصعوبة الإستيلاء على الرها يمم وجه نحو أنطاكيا ولكنه وصل متأخراً جداً،

فخلال الثلاثة أسابيع التى اضاعها كربوقا أمام أنطاكيا كثف بوهيمند جهوده فى تنفيذ مخططه فى التواصل مع أحد من المتواجدين خلف الأسوار المنيعة، فنجح أخيراً فى التواصل مع أحد ضباط ياغى سيان يدعى "فيروز الزراد"

وهو أرمنى الأصل، حقد على ياغى سيان مصادرته قبيل هذه الأحداث بسبب إتهامه بالمتاجرة فى السوق السوداء، وكما كان يريد ضمان أمنه الشخصى وأمن عائلته، وبعد مفاوضات سرية بين بوهيمند وفيروز تم التوصل لإتفاق يقوم بمقتضاه فيروز بتسهيل إقتحام أنطاكيا مقابل عائد مادى ضخم ووعد بضمان حياته وحريته هو وأسرته، كل هذا جرى فى منتهى السرية ولم يُطُلع عليها بوهيمند أى من القادة الأخرين، بينما أخذ بوهيمند فى الدعاية للأخطار المحدقه بالصليبيين أذا لم يتم الإستيلاء على أنطاكيا قبل وصول جيش كربوقا، الذى أخذ فى التحرك فى إتجاه أنطاكيا تاركاً حصار الرها،

ما أن بلغت أسماع الصليبيين نبأ إقتراب جيش كربوقا حتى أزدادت وتيرة الهروب من الجيش، حتى طالت حالات الهروب كبار الأمراء الصليبيين ففى نفس يوم سقوط انطاكيا هرب ستيفن كونت بلوا زوج أبنة وليم الفاتح ملك إنجلترا على رأس حشد غفير من الفرنسيين فى إتجاة ميناء الأسكندرونة للبحث عن أى وسيلة تقلهم لأوطانهم، فالموت فى سبيل حرب مقدسة لم يكن فى الحسبان بقدر ما كانت كنوز الشرق التى وعدوا بها هى المحرك لهم ،

وفى ذات اليوم الذى شهد هروب ستيفن، وبينما الصليبيون يضربون أخماساً فى أسداس، ويتشاورون فى ما يجب عليهم إتباعه لمواجهة قوات النجدة القادمة من الشرق، قام بوهيمند بإعلان إتفاقه مع فيروز بعد تحديد موعد تنفيذ الأتفاق فى هذا اليوم، وكانت الخطة كما شرحها لهم تقضى بتظاهر الصليبيون بالخروج فى إتجاة الشرق لمقاتلة جيش كربوقا، ثم يتسللوا تحت جنح الليل للسور الغربى للمدينة عند برج الأختين المسئول عنه فيروز بعد تزويد جنودهم بالسلالم، ليسهل فيروز لهم الأستيلاء على أحدى البوابات التى سيتولى حراستها هذه الليلية، ولضمان صدق فيروز ارسل أبنه كرهينة لدى بوهيمند، الذى عرض هذه الخطة على القادة مع إظهار خطاب فيروز والذى لم ينسى بوهيمند لفت نظر القادة إلى ما ذيل به فيروز خطابه من شرطه لكى يتم تنفيذ هذا الأتفاق، وهذا الشرط هو إتفاق جميع القادة على أن يتولى بوهيمند وحده السلطة فى أنطاكيا ،

عند غروب الشمس أخذت كتائب فرسان الجيش بالزحف فى إتجاه الشرق تحت نظر أعين حامية أنطاكيا، متظاهره بالخروج لقتال كربوقا، وما أن شاهدتهم حامية أنطاكيا حتى أسترخت ممنيه نفسها بقضاء ليلة هادئة، بعد كم

المعارك التى خاضتها، ليذهب الجميع فى نوماً عميق وتتراخى دوريات حراسة الأسوار،

وقبيل الفجر أرتد الجيش الفرنجى فى سكون ووجهته السور الغربى لأنطاكيا حيث فيروز يتولى مسئولية الدفاع عن برج "الأختين" فى كنف الجبل منتظراً هناك، ووصل جنود بوهيمند فى صمتاً تام، حاملين السلالم التى أعتلوها للوصول أعلى أسوار أنطاكيا، ليدلف ستين فارس من خلال نافذة لغرفة كان داخلها فيروز الذى أبدى إمتعاضه من قلة عددهم، ولكن هؤلاء الفرسان أخذوا فى صمت فى قتل القوات التى تتولى حماية الأسوار وقد غضت فى نوماً عميق أطمئناناً لبعد الجيش الصليبى، حتى إستطاعت هذه القوة فتح بوابة السور الغربى ليتدفق منها فيضان من الجنود الجوعى ممتلئ الحقد ليقتلوا كل من صادفهم وينهبوا الجميع، مسلمى أنطاكيه ومسيحيها، وحاول ياغى سيان الهرب قبل أن يقبض عليه بعض الأرمن فيقتلوه ويبيعوا رأسه لبوهيمند، بينما أحتل أبنه شمس الدولة قلعة أنطاكيا وتحصن بها، وفى نهاية اليوم لم يبقى بين سكان أنطاكيا المسلمين أحياء، بعد قتل الجميع حتى أنه لم يكن فى الأمكان السير فى شوارع أنطاكيا بسبب الجثث المنتشره فيها، حتى كانت أول مشكلة تواجه الصليبيين بعد إحتلال أنطاكيا هى التخلص من الجثث قبل تحللها فتنتشر الأوبئة بالمدينة، وحاول بوهيمند شن هجوم مفاجئ ليستولى على القلعة ولكنه أرتد مثقل بجراحه هو ورجاله،

ها قد أرتفعت رايات بوهيمند الحمراء على أسوار أنطاكيا 2 يونيه 1098م، وبالرغم من الكميات الهائلة من مواد الأعاشة التى أستولوا عليها، لم يتسنى للصليبيين الأستمتاع بنصرهم أو حتى مناقشة مستقبل المدينة، فكربوقا على الأبواب وأن جاء متأخراً، فالوقت الذى أهُدر فى حصاره للـرها كان كفيل بتجنيب الشرق ويلات الإستيطان الصليبى لعدة مئات من السنين،

وصل جيش كربوقا ليعسكر فى نفس مكان المعسكر الصليبى قبل إقتحامهم أنطاكيا 4 يونيه 1098م، وتم توفير قناة إتصال بالقلعة المسيطر عليها شمس الدولة، ليصمم كربوقا على وجوب تسليم القلعة لرجاله فيوافق شمس الدولة على مضض، وتم تعيين الأمير أحمد بن مروان ضابطاً على القلعة من طرف كربوقا، ليحاول كربوقا التوغل للمدينة والإستيلاء عليها من خلال القلعة، ولكن الخطة تفشل بسبب السور الذى شيده الصليبيون ليفصل القلعة

عن باقى أجزاء المدينة، وإن نجح فى الإستيلاء على ميناء السويدية القريب وتحرير بعض الأسرى المسلمين[28]

ليعتمد كربوقا خطة الحصار وتجويع الصليبيين، وعند قيام كربوقا بإعادة إنتشار قواته لإحكام الحصار على أنطاكيا حاول الصليبيون مهاجمته ولكنهم أقتنعوا بأن الفرار لداخل أسوار أنطاكيا أفضل،

وعضت المجاعة بأنيابها الجيش الصليبى، الذى فى غمار نشوة نصره بإستيلاءه على أنطاكيا دمر مخزونها من مواد الأعاشة، ليجد نفسه فريسة الجوع، فقد أستولت على المدينة مجاعة رهيبة أضطر معها جموع الصليبيون أكل الميتة، حتى أصبح السيف بالخارج والجوع بالداخل[29] مما كان دافع للكثير لمحاولة هروبه من أنطاكيا حتى نجح بعضهم، والمثير كان ممن نجح فى الهرب كونت المدينة التى شهدت بداية التبشير بالحرب المقدسة، لامبرت كونت كليرمونت، ومن ضمنهم أيضاً زوج أخت بوهيمند، بل هناك العديد سلموا أنفسهم لقوات كربوقا ،

وتمسك الصليبيون بأخر أمل لإنقاذهم من هذا النفق المظلم المحاصرين فيه، ألكسيوس، فقد أنتشرت أخبار بإقتراب حملة الأنقاذ التى يقودها ألكسيوس أمبراطور بيزنطة، بينما ألكسيوس يتلمس الأخبار وهو على مشارف الشام، يقدم قدم ويؤخر الأخرى، ورد عليه ستيفن كونت بلوا وبعض الفارين الأخرين ليعلنوا هلاك الجيش الصليبى أمام أنطاكيا ـ كما صور لهم رعبهم وربما لحفظ ماء وجههم لهروبهم من أمام أسوار أنطاكيا ـ، بينما يخبره بطرس أولب أحد الفارين من أمام أنطاكيا أنه رأى جيشاً إسلامياً فى طريقه لقتال الجيش البيزنطى، ليقطعوا تردد ألكسيوس فيدير ظهره مسرعاً لعاصمته، فألكسيوس كان يخشى مسبقا التواجد بالشام مع الجيش الصليبى حتى لا يصير تحت رحمة الصليبيين الجشعة، فزادت كراهية الفرنجة لليونان، وأنصبت لعناتهم على ألكسيوس الذى خان الحرب المقدسة، كراهية أستمرت ملازمة اللاتين حتى نجد اثارها فى كتابات وليم الصورى، الذى كان لا يصف الكسيوس إلا بالماكر[30]، وكما كان إنسحاب ألكسيوس كإعلان

28 تاريخ حلب ص359
29 تاريخ وليم الصورى ج1 ص338
30 تاريخ وليم الصورى ج1ص155

تنازل عن كافة حقوقه فى الأراضى المستولى عليها وخصوصا أنطاكيا كما بيّن لهم بوهيمند ذلك ،

بلغت الروح المعنوية الحضيض بالنسبة للصليبيين فلم يكن هناك أمل، فلا توجد نجدة قادمة فى الأفق، ولا يوجد طعام، وجيش كربوقا محاصر أنطاكيا تماماً، حتى أضطر بوهيمند لإشعال النيران بالمنازل التى أختفى بها الجنود المناط بهم حماية الأسوار خوفاً من قوات كربوقا وعجزاً عن مواجهة الجوع، حتى أتت هذه النيران على ألف منزل، فكان يجب رفع معنويات الجنود بأى ثمن حتى لا يتحول الجيش إلى مجموعة من القتلى والأسرى،

الجيش فى حرب مقدسة، والمعلن إنه زاحف بأمر آلهَى فيجب إستغلال هذه النقطة، والبسطاء يصدقون أى ما يمت للناحية الدينية بصلة، فأعلن أحد فقراء القسس من بروفانس ويسمى بطرس بارثولوميو أنه حلم إثناء نومه بأحد الحواريون (أندراوس) يخاطبه بأن جميع القديسين سيحاربون مع الصليبيين، ويرشده عن مكان الرمح الذى أشيع بطعن السيد المسيح به، وأن القديس أندرو أخذ بطرس طائراً ليريه مكان الرمح بكنيسة أنطاكيا، وعاد له أندرو أكثر من مرة بسبب تخوف بطرس من عدم تصديق قصته، مخبراً بطرس بوجوب إبلاغ هذه الرسالة لريموند بالتحديد، وبالمصادفة ريموند هو سيد بروفانس مسقط رأس بطرس، مما حدا ببوهيمند إنكار هذه الرؤيا التى ترفع من شأن رفيق سلاحه اللدود، وبالفعل ذهب بطرس ويسبقه ريموند وأخرون وقاموا بالحفر فى المكان الذى حدده بطرس طوال نهار يوم 14يونيو1097م، وبعد يأس الجميع ومبادرتهم بالإنصراف، يقفز بطرس فى الحفرة مخرجاً قطعة من الحديد معلناً أنها الرمح وسط تهليل الجميع، وتتوالى الأحلام والرؤى من بطرس وغيره مبشره بالنصر، وعند إشتداد المجاعة كان يجب القيام بهجوم شامل على كربوقا لضرب جيشه وإجباره على رفع الحصار، ومعنويات الجيش لا تسمح بالقتال وقد يتمرد الجنود الجوعى، فحلم أخر من القديس أندرو لبطرس يطالب فيه بوجوب قيام الصليبيون بهجوم فى ظرف خمسة أيام ضد كربوقا مع وعد بمعونة سماوية سيؤدى الغرض،

بينما يحاول الصليبيون بث الشجاعة فى نفوس جنودهم المنهاره معنوياً، كان المشهد فى معسكر كربوقا على عكس ذلك تماماً، فقد أستاء الأمراء المتحالفون مع كربوقا من تعاليه عليهم وإستبداده بالأمور، ومعاملتهم كأتباع وليس حلفاء، وزاد إستياء دقاق صاحب دمشق قيام كربوقا بالتفاوض مع أخيه

وعدوه رضوان صاحب حلب، وكما كان الهجوم الفاطمى بجنوب الشام دافعاً له للأعلان بوجوب عودته لمدينته لحمايتها، وطفت على السطح المنازعات حتى بين جنود جيشه، فحدثت مشاحنات وإحتكاكات بين جنوده العرب وجنوده الأتراك، وكان إستعمال كربوقا القسوة فى منع هذه الأحتكاكات السبب الذى أوغر صدور جميع رجاله عليه،

وحاول الفرنج إستغلال ظروف كربوقا المضطربة بإرسال سفارة إليه لعلها تقنعه بفك الحصار، وبيان عدم وجود أى نوايا عداءيه ضد كربوقا وممتلكاته، وتألفت هذه السفارة من الداعى الهارب بطرس الناسك والذى تم تعينه فى هذه المهمة كفرصة لإستعادة سمعته بعد محاولة هروبه المخذية علاوة على فارس يسمى "هيرلوين" يجيد العربية والفارسية للقيام بالترجمة، وقد تمسك كربوقا بضرورة إستسلام الفرنج بدون قيد أو شرط، فتم قبول خيار القتال من الطرفين ،

وحدث أن مرض ريموند مرضاً ألزمه الفراش، مما كانت فرصة ذهبية لبوهيمند بتوليه القيادة العامة فى هذه المعركة، لتأكيد مجهوداته المضنية فى الحفاظ على أنطاكيا، وقام بوهيمند بتقسيم الجيش الصليبى لستة كتائب مقسمة على أساس عرقى، كتيبة مكونة من الفرنسيين الشماليين والفلمنكيين بقيادة هيو أوف فيرماندو وروبرت أوف فلاندرز، وثانية من شرق فرنسا بقيادة جودفرى، وثالثة من نورماندى بغرب فرنسا بقيادة روبرت دوق نورماندى، ورابعة من تولوز وبروفانس بجنوب فرنسا بقيادة أديمار مندوب البابا، والخامسة والسادسة من نورمان إيطاليا بقيادة بوهيمند وتنكريد، مع ترك فصيلة من مائتين جندى لحماية القلعة ويقودهم ريموند من فراش مرضه، وفى مقدمة الجيش الـرمح يحمله بطرس،

خرجت الكتائب الصليبية فجر يوم 28يونيه1098م تباعاً من أسوار أنطاكيا خلال باب المحمرة، خرج أولاً هيو (هيج) وكونت فلاندرز وروبرت دوق نورماندى كحرس مقدمة الجيش، وتبعاً للتكتيك اللاتينى سارت المشاة أولاً ومن خلفها الفرسان، لتوفير الحماية لجياد الصليبيين التى لا يمكن تعويضها من سهام ونشاب قوات كربوقا، وقد علم كربوقا بإستعدادات الصليبيين عن طريق قواته المحتله قلعة المدينة، وحاول أحد أمراء كربوقا العرب ويسمى وثاب بن محمود حث كربوقا بالقيام بالهجوم على جيش الفرنجة قبل أستكمال حشده خارج أسوار أنطاكيا وعدم أعطاءه فرصة تنظيم صفوفه، ولكن كربوقا

رفض واثقاً فى جيشه، حتى يستطيع القضاء على جيش الفرنجة كاملاً وليس المقدمة فقط، وأقصى ما فعله كربوقا هو إحتلاله طريق تقدم الصليبيين بواسطة كتيبة من فرسانه، التى هاجمها هيو وأجبرها على التقهقر ،

وبالفعل تم تأخير هجوم كربوقا حتى أتخذ جيش الفرنجة أوضاعه القتالية المناسبة وأستعد للقتال كل هذا وكربوقا ينتظر، فحاول كربوقا التظاهر بالأنسحاب لسحب جيش الفرنجة للموقع المناسب له وأرسل فصيلة قوية لضرب الجانب الأيمن للصليبيين، ولكن بوهيمند أنتبه لخطة كربوقا وتم القضاء على هذه الفصيلة، وشدد الهجوم على الجيش الرئيس لكربوقا وأنتشرت بين صفوف قوات الصليبيين أقاويل عن وجود فرسان بملابس بيضاء يلوحون برايات بيضاء، وأن لم يشاهدها الجميع ويبدوا أنه لم يشاهدها إلا من له صلة ببوهيمند، وأعقب ذلك تخلى أمراء كربوقا المستائين من تكبره وتعاليه عليهم عنه، وإنسحابهم تباعاً وعلى رأسهم دقاق أمير دمشق "ولم يضرب أحداً منهم بسيف ولم يطعن برمح ولم يرمى بسهم"[31] ولم يكن للمحاربين "عزيمة صادقة فى جهاد ولا حماية بلاد"[32] وفشل كربوقا فى إعادة تنظيم صفوف جيشه المضطرب بسبب الضغط الصليبى المستمر، وحاولت قواته إشعال النيران فى الحقول المحيطة لعرقلة التقدم الفرنجى دون جدوى، مما أضطره للأنسحاب من ميدان المعركة عائداً للموصل ،

قد حددت هذه المعركة مصير الشام ككل، فقد تخلص الصليبيون من الخطر الإسلامى حتى حين، وتأكد لديهم عدم قدرة الأمراء المسلمين على مواجهتهم أو التغلب عليهم، كما بينت هذه المعركة إحتياج المسلمين لقيادة قوية تستطيع جمع الكلمة على المقاومة وقيادتهم فى طريق النصر، وأن العدو الحقيقى للمسلمين هو الإنقسام والتشرذم ،

تأكد مصير أنطاكيا بإستسلام أحمد بن مروان بعد مفاوضات عقب إنسحاب كربوقا، بعدما رفض تسليمها إلا لبوهيمند والذى يبدو أنه كان بارعا فى فن المفاوضات السرية مع المحاصرين، وهنا ثارت مشكلة حكم أنطاكيا، فقد عمل بوهيمند جاهداً على الأحتفاظ بها مستعيناً بتأيد جميع الأمراء ماعدا ريموند فقط، بل أخذ فى فرض سياسة الأمر الواقع بالإستيلاء على أبراج الأسوار التى كانت فى أيدى القادة الأخرين بإستثناء الأبراج المسيطر عليها

[31] الكامل ج8 ص187
[32] ذيل تاريخ دمشق ص175

ريموند، ويبدو أنه أستولى عليها بمباركة القادة الذين لم يرغبوا فى القتال للأستيلاء على أنطاكيا وتحمل مشقة الحفاظ عليها للأمبراطور الغائب، الذى لم يجهد نفسه بمشاركتهم معاناتهم بل لم يرسل حتى جزء من جيشه لمعاونتهم، ويضاف إلى ذلك الكراهية التى كان يكنها اللاتين للبيزنطيين، كراهية زادها الحرمان الذى عانوا منه فى أنطاكيا والطريق إليها، ولم يجدوا من يلقوا عليه تبعية هذا الحرمان سوى ألكسيوس، وكما لا يرغبون فى خسارة جهود بوهيمند الذى ألمح بضرورة عودته لإيطاليا إلا إذا منحت له أنطاكيا، الوحيد الذى صمم على وجوب الوفاء للقسم أمام الأمبراطور هو ريموند الذى لم يقسم للأمبراطور أصلا، وبالفعل تحت ضغط ريموند وزميله أديمار تم الأتفاق على أرسال هيو كونت فيرماندو الراغب بشدة فى العودة لموطنه كمبعوث للأمبراطور لمطالبته بضرورة سرعة حضوره على رأس جيشه لتسلم أنطاكيا، ولكن الأمبراطور لم يعد يملك النية للزحف المقدس ،

وأدى أنتشار نبأ سقوط أنطاكيا إلى مسارعة جمهورية جنوا إلى محاولة السبق فى الحصول على إمتيازات تجارية فيها، وهو ما أستغله بوهيمند الذى أصبح يلقب بأمير أنطاكيا فى محاولة توطيد مركزه بعقد معاهده معهم يمنحهم بمقتضاها سوق وكنيسة وثلاثين منزل داخل أنطاكيا، فى مقابل أن يساعدوه على إحكام سيطرته عليها والوقوف إلى جانبه ضد من يقاتله إلا فى حالة قتاله ضد ريموند، ومن حسن طالع بوهيمند أن وافت أديمار المنية ليخفف عنه عبء المعارضة لإستيلاءه على حكم أنطاكيا، فوفاة إديمار متأثراً بالوباء الذى أنتشر فى أنطاكيا بفعل تحلل الجثث والمرجح أنه التيفويد أو الطاعون، ترك فراغاً فى القيادة الدينية للحملة، جعل النبلاء يسارعون بالكتابة للبابا شارحين له الموقف العام للحملة، مترجين أن يلحق بهم لقيادتهم خلال طريقهم الدموى ،

وإستكمالاً لمسلسل التفكك تجدر الإشاره لأمير قلعة أعزاز المسمى عمر، فمدينة أعزاز كانت تابعه لرضوان صاحب حلب، وظهرت من عمر هذا بوادر تمرد على سيده، مما دفع رضوان للقيام بحملة لتأديب أميره المتمرد، كل هذا والصليبيون يستولون على أنطاكيا فبدلاً من إتحاد الأمراء المسلمين نجدهم يقاتلون بعضهم البعض تاركين الفرنجة يعملون فى حرية فى إقتطاع أجزاء من الجسد العربى المريض، ويااليت الأمر أنقضى على هذا فقط بل أستنجد أمير عمر بجودفرى ضد رضوان، وبالتأكيد لم يضيع جودفرى

فرصة إنقسام العالم العربى، فطلب من ريموند مساعدته الذى سارع بتلبية طلب جودفرى، وكما أرسل بلدوين بعض قواته من الرها تبلغ ثلاثة آلاف جندى، ليزحف جودفرى على أعزاز بعد أخذ أبن الأمير عمر رهينة، فيرفع رضوان حصاره عن أعزاز عند إقتراب الجيش الصليبيى، ليقسم أمير عمر قسم الولاء والتبعية لجودفرى (سبتمبر 1098م)، فكان هناك من الحكام بالشرق من هم على إستعداد الإستعانة بأعداء أمتهم ومن جاءوا لإغتصاب أراضيهم من أجل محاربة بعضهم البعض حتى ينقلب عليه من أستعانوا بهم عن قريب،

وهنا أخذ جميع قادة الفرنجة فى البحث عن نواة لأمارات لهم بالشرق، فجودفرى ذهب شرقاً بعد أن منحه أخيه بلدوين مدينتى تل باشر وروانداان بعد أن تعهد جودفرى على إعادتهما لبلدوين ثانية إذا ما أستولى على أى مدن أخرى، أما بوهيمند فبعد تأكده من إحكام سيطرة رجاله على أنطاكيا سار لأقليم كيليكيا بالشمال الشرقى ليبحث عن أراضى لتوسيع حدود إمارته الوليده، بينما سارع روبرت كونت نورماندى للاذقية ليتولى حكمها قبل أن يجبر على الفرار منها من أهاليها بسبب ضرائبه وقيامه بنهب سكانها، وريموند قام بتجربة حظه بحوض نهر العاصى فأستولى على بعض القرى الصغيرة وأهمها البارة ،

وبينما القادة يحاولون إرضاء جشعهم ويحققون بعض النجاحات فى إستيلاءهم على بعض المدن والبلدات وجد صغار الجنود أنفسهم لم ينالوا أى فائدة من إنتظارهم بأنطاكيا، بل عض الجوع بطونهم فبعد الإستيلاء على أنطاكيا فوجئ الجميع بعدم وجود أى طعام بسبب عدم زراعة أى مساحات من أنطاكيا، وتحت إلحاح هؤلاء الجنود عقد القادة إجتماع لبحث الخطوات التالية للحملة، وأفتتح بوهيمند الحديث بمطالبته بحقه فى حكم أنطاكيا منفرداً، فالأمبراطور لم ولن يحضر مما يجعلهم فى حل من قسمهم له، وأعترض ريموند على هذا الطلب مطالباً الجميع بإحترام تعهداتهم أمام الأمبراطور، وأن كان ما يحركه هو غيرته من بوهيمند، فأنفض الإجتماع بدون طائل فهددهم الجنود بأستكمال زحفهم بدون الأمراء بعد قيامهم بتدمير أسوار أنطاكيا تماماً، وخوفاً من حدوث ذلك وكحل وسط تم الأتفاق سراً على محاولة فتح معرة النعمان ومنحها لريموند إرضاءاً له لترك الأجزاء المستولى عليها من أنطاكيا لبوهيمند،

وبالفعل هوجمت معرة النعمان وأن فشل هذا الهجوم فى الإستيلاء على المدينة، فتم فرض الحصار عليها، الذى قاومه رجالها ببسالة شديدة، وقاموا بقصف الصليبيين المحاصرين لمدينتهم بخلايا النحل التى تشغى بنحلها، وبعد حصار أسبوعين تم الإستيلاء على المدينة والتى لم يجد بها الصليبيون أى طعام يأكلوه إلا اللحوم البشرية للقتلى، بعد أن شجعهم بطرس الناسك على إلتهام لحوم قتلى المسلمين، فقد قام جنود الجيش المقدس الباحثين عن التوبة، بغلى الرجال البالغين فى قدور وشى الأطفال الصغار وتناول لحومهم، وأقتطعوا لحم العجز من جثث الشرقيين وطبخوه وأكلوه، وملتهمين اللحم بوحشية قبل أن يتم طهيه [33] ،

وساوم بوهيمند ريموند على تسليمه الأجزاء التى أستولى عليه من معرة النعمان بشرط أن يقوم ريموند بتسليمه الأجزاء المسيطر عليها فى أنطاكيا، ويقوم بوهيمند بطرد رجال ريموند من أنطاكيا[34]، وبسبب طمع ريموند الإعتراف به قائداً عاما على الحملة حاول شراء موافقة باقى الأمراء بمبالغ مالية، ثم أعلن قيامه بالزحف بعد قيام الدهماء بحرق معرة النعمان لإجباره على التحرك جنوباً، ففقراء الصليبيون وجدوا أنفسهم أسرى الجوع الضارى بشمال الشام، بينما بوهيمند وريموند يتصارعان على الفوز بأمارات لهما، فى الوقت الذى لم يستفد المقاتلين الفقراء المترجلين من الإنتظار بشمال الشام، بل سقطوا صرعى المرض والجوع، فرأوا فى الزحف لجنوب الشام بارقة أمل لإسكات ضربات جوعهم، ولم يصحبه إلا روبرت كونت نورماندى وتنكريد، قبل إن يلحق بهم بعد شهر جودفرى دوق اللورين وروبرت كونت فلاندرز مدفوعين بتهديدات رجالهما، بعد مرور خمسة عشر شهراً قضوها بأنطاكيا خلال زحفهم المقدس قضوا أغلبها يتصارعون على إقتسام الغنائم والبحث عن مدن وقرى لتكوين إمارات غربية بعد قتل سكانها، ويبحثون عن الأسرى المسلمين ليأكلوا لحومهم، بل أن مرشديهم يحثوهم على ذلك المسلك الذى ينزع الأنسانية عن فاعله، خمسة عشر شهراً بينما الشرق لم يستفيق من نومه ويتحد لمواجهة الخطر المحيط ببلدانه، وأخيراً تحرك الصليبيون جميعا فى 13يناير1099م، وإن بقى بوهيمند وبلدوين فى أمارتيهما الجديدتين بعد أن حققا ما سافرا من أجله ،

[33] تاريخ الحملة إلى القدس ص68
[34] تاريخ الحملة إلى القدس ص68

الطريق إلى القدس

وتبدأ مرحلة جديده من تاريخ الحملة، فقد تغيرت خريطة المنطقة فى الخمسة عشر شهراً هذه، الفاطميون إعتماداً منهم على نجاح سفارتهم للجيش الصليبى والحفاوة التى قوبل بها مبعوثيهم من قبل قادة جيش الفرنجة قاموا بالإستيلاء على جنوب الشام بما فيها بيت المقدس من الأمير سقمان (سكمان) الأرتقى وأخيه الأمير آيلغازى الأرتقى فى 26أغسطس1098م، جاعلين حدود دولتهم نهر الكلب جنوب مدينة بيروت، وأحسن الأفضل معاملة سقمان وآيلغازى وسمح لهما بالتوجه لدمشق، إعتقاداً من الأفضل إختفاء أعداءه الأساسين السلاجقة من مسرح الأحداث فى الشام، وإعتماداً على ثقته فى حلفاءه الجدد ـ الصليبيين ـ أدار الأفضل ظهره للقدس متوجهاً للقاهرة تاركاً حامية بعيدة عن الضخامة بالمدينة المقدسة، مستبعداً أقدام الصليبيين على مهاجمة جنوب الشام، ولكن الأيام أوضحت له خطأ حساباته، فما أن أستولى الصليبيون على أنطاكيا حتى تماست حدود الفريقين وأصبح الحليفان وجهاً لوجه، فلم يعد هناك مفر من الأصطدام بينهما، فحاول الأفضل اللجوء للدبلوماسية مجدداً، فأرسل سفارة لتلتقى بالجيش الصليبى قرب طرابلس تحمل هدايا لجميع قادة الفرنج وتعرض تسهيل أداء الحج لبيت المقدس بشرط قدوم الصليبيين بمجموعات صغيرة غير مسلحة، ولكن كان الرد الصليبى فظ وصادم، ردوا بأنهم سيقومون بالحج بطريقتهم الخاصة، وكان لسقوط أنطاكيا وقع مدوَى فى نفوس حكام مدن الشام، فبدلاً من إتفاقهم على المقاومة نافسوا بعضهم البعض على الفوز بود الصليبيين، إعتقاداً منهم أنهم بذلك يحافظون على عروشهم،

فما أن بدء ريموند الزحف حتى سارع الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان أبن منقذ أمير شيزر فى 17يناير1099م بإرسال سفراءه عارضاً توفير مرشدين ليدلوا الجيش الصليبى على أفضل الطرق وأيسرها لبيت المقدس، ويبدى إستعداده لأمداد الجيش الصليبى بإحتياجاته الغذائية بأسعار تنافسية، بل سمح للجيش الصليبى بإستكمال النقص فى خيوله بشراء ألف فرس بالفائض من الغنائم التى أستولى عليها من أنطاكيا، كما تعهد بتوفير ممر آمن لمرور القوات الصليبية فى طريقهم لإحتلال القدس، وقد أختير طريق الساحل للزحف للقدس مباشرة، فالجيش الصليبى أصبح صغير العدد وغير قادر على الإستيلاء على أى من المدن الكبيرة، بينما يجب توفير مجهوده لمعركة القدس، وذلك بمساعدة حكام المدن الواقعة فى الطريق، التى سارع حكامها

كما سنرى لشراء السلام من الجيش الضعيف، فالصليبيون على يقين بإن أخبار الأستيلاء على القدس كفيلة بجلب طوفان من جيوش أوروبا ،

وبالفعل بدء الصليبيون الزحف للقدس مع محاولة تجنب تجمعات السكان، وحدث إثناء مرور الصليبيين بسهل البقاع أن وصلوا لأطلال حصن الأكراد، والذى أحتمى فيه سكان وحامية المنطقة، فقاتلهم الجيش الصليبي، ويبدوا أن الجيش الصليبى أصبحت عاداته معروفة، فقد قام المدافعون عن حصن الأكراد بإخراج بعض الماشية من أحد الأبواب، والتى ما أن رأها جنود الجيش الصليبى حتى نسوا كل شئ إلا هذه الماشية والتى تسابقوا للفوز بها، وتتبعثرت قوات ريموند شذر مذر، فأستغل أهل حصن الأكراد هذه الفوضى وقاموا بهجوم خاطف زلزل الجيش الصليبى وكاد قائده ريموند أن يقتل بعد تسابق حرسه خلف الماشية وتركوه، وقام السكان بإخلاء الحصن مستغلين هزيمة الصليبيين، والذين حاولوا بعد تجميع شعث قواتهم الأنتقام من حصن الأكراد ففوجئوا به خالياً (29 يناير 1099م)،

والمبكى تسارع حكام الشام فى إرسال سفارات للجيش الصليبى فى أثناء وجوده بحصن الأكراد، معلنين عدم تعرضهم للجيش أثناء زحفه وأستعدادهم لتقديم كافة الخدمات والتسهيلات لوصول الجيش لوجهته، فى سبيل عدم تعرض الجيش لأماراتهم، بل نجد أن حكام شيزر المسيطرين على المنطقة الواقعه بين حوض نهر العاصى حتى البحر المتوسط، وأسرة بنى عمار صاحبة طرابلس ينتهجان سياسة المهادنة والإستسلام للصليبيين، الأمر الذى يعنى أن الأراضى المار بها الطريق إلى القدس صارت ممهدة أمام الجيش القاتل، وسمح حكام شيزر للصليبيين بشراء ألف حصان ليقاتلوا بها فى زحفهم الدموى مقابل بعض الغنائم والأغنام التى أستولى عليها الصليبيون، كما وصل مبعوث من أمير حمص جناح الدولة أبن ملاعب محملاً بالهدايا لشراء رضا الصليبيين ولحقتها سفارة من أمير طرابلس القاضى أبو على فخر الملك بن عمار وطالب بأسم أمير طرابلس برايات ريموند لتزين أسوار أمارته، وقد دفع هذا الطلب ريموند للطمع فى طرابلس فحاول مهاجمة عرقة أحدى قلاع طرابلس بعد أن قام بعض تابعيه بالإستيلاء على أنطرسوس، والأشد إيلاماً أن القوة التى أستولت على طرسوس أنما هى فصيلة صغيرة من مائة فارس ومائتى من المشاة[35] زحفت للبحث عن ما يقتات به الجيش

[35] الحروب الصليبية ج2ص46

بقيادة فارس يسمى ريموند بيلية، وما أن ظهـرت هذه الفصيلة الصغيرة أمام أسوار طرسوس حتى قاتلها أهالى المدينة حتى إسدل الليل أستاره، فأخلى أهالى طرسوس مدينتهم تحت جنح الظلام، بعد أن أستولى عليهم الرعـب من الفرنج، بالتأكيد ما حدث فى معرة النعمان إنتشر فى المدن المحيطة، ثم اليأس من النجدة فأميـرهم القاضى إبن عمار أطمأن لصداقته للفرنج، وأضطر الجيش الصليبى إلى رفع الحصار عن عرقه بعـد أربعة أشهر من الفشل فى أقتحام أسوار المدينة بالرغم من إكتمال الجيش الصليبى بعد وصول جودفرى وروبرت كونت فلاندرز ،

ولم يكتوى المسلمون فقط بنيران الصليبيين، بل أكتوى البيزنطيين بنيرانهم الصديقة، فقط هاجم القرصان نيمار مدينة اللاذقية المدينة الوحيدة بالشام التابعة لبيزنطة، ليسقط فى أسر حاكم المدينة البيزنطى ليقوم جودفرى بمظاهرة عسكرية تحت أسوار اللاذقية يجبر من خلالها حاكمها بإطلاق سراح القرصان الأسير، الذى سيوفـر دعم بحرى محدود بأسطوله إثناء زحف الجيش اللاتينى ،

وبالرغم من إستيلاء الصليبيون على أنطرسوس (طرسوس) ومهاجمة عرقة التابعتين لأمارة طرابلس فما أن أقترب الجيش الصليبى من طرابلس حتى سارع أميرها أبن عمار بشراء أمان عاصمته لفترة من الوقت بخمسة عشر ألف بيزنطة[36] وخمسة عشر جواد أصيل، وعدد كبير من الحمير، وكما أمد الجيش بكل ما يحتاجه من طعام وشراب ومرشدين للطريق، وهذا نفس النهج الذى أنتهجته بيروت وعكا وأن حاول حاكم صيدا قتالهم ولكن ماذا سيفعل منفرداً،

وأستمر التقدم الصليبى بمعاونة الأنقسام العربى، حتى وصل الجيش الصليبى للرملة المدينة الداخلية، والتى أخلتها حاميتها وسكانها، ومنها سارع تنكريد لأحتلال بيت لحم وأستمر الجيش فى التقدم حتى ظهرت أسوار بيت المقدس فى يوم الثلاثاء الموافق 7يونية1099م، وبالرملة عقد الجيش الصليبى مجلس حـرب لمناقشة الرأى القائل بضرورة البدء بمصر لأن مفاتيح القدس بالقاهرة، فقد أطارت النجاحات التى صادفها الجيش الصليبى فى الشرق عقول قادته وجنوده، وتملكهم الزهو بالنصر الذى صادفوه بتشتت أعداءهم،

[36] عملة ذهبيه بيزنطية

وأنسى البعض منهم المدينة المقدسة وحلموا بالإستيلاء على مصر ليستطيعوا إلتهام الشرق بأكمله، ولكن غلب الرأى المنادى بالبدء بالقدس بسبب ضعف الجيش الصليبى،

ويستمر تقدم الصليبيين بسلاسة بدون أن يصادفوا مقاومة حقيقية، ليستطيع جيش الفرنجة الوصول إلى جنوب الشام ماراً بالعديد من المدن والأمارات والتى تخلى حكامها قصيرو النظر عن خيار القتال والأقتصار على الدفاع عن عروشهم بالخضوع ملقين وراء ظهورهم أى هدف غير ذلك، وظلوا متحصنين خلف حصونهم، ينظرون بإرتياح من أعلى قلاعهم للجيوش التى تمر عرضاً بعيداً عنهم، متناسين إن سيوف الصليبيين التى منحوها حرية الهجوم على القدس سوف تستدير إليهم بعد تحقيق الهدف الذى سوف يجلب المزيد من جنود أوروبا كما أشار تنكريد، فشل العرب فى نسيان خلافاتهم وأن يتحدوا ضد العدو المشترك وفقدوا القدرة على قراءة الموقف قراءة صحيحة بأنهم مجرد أهداف مؤجلة حتى تسمح ظروف أعداءهم، وأن أعداءهم يحاولون صرف نظرهم عن هذه الحقيقة حتى يقابلوهم منفردين،

تحت أسوار القدس

المدينة المقدسة فى الأديان السماوية، أغدقت عليها قدسيتها أهتمام الحكام المختلفين الذين تولوا حكمها على مدار تاريخها، مما متعها بتحصينات قوية تولى بناءها الرومان وزادت مناعتها بما أضافه عليها المسلمون بعد ذلك، وأن كان يعيب القدس عدم وجود مورد مياه داخل أسوارها وكل مصادر المياه بالنسبة لها كانت الأبار القليلة خارج هذه الأسوار، وأن أنتشرت بها خزانات المياه والتى أضلعت بحل جزء من هذه المشكلة، وكان يتولى مسئولية الدفاع عنها فى ذلك الوقت الأمير الفاطمى إفتخار الدولة وتحت قيادته حامية متوسطة العدد من المصريين، وأستعد إفتخار الدولة للحصار بطم الأبار الواقعة خارج الأسوار أو تسميمها، وكما قام بتخزين كميات وفيرة من الطعام إنتظاراً لحصار طويل، وكما قام بتغطيه الأسوار والأبراج بأكياس ضخمة مليئه بالقطن والقش لتخفيف وقع ضربات منجنيقات الجيش المهاجم،

تم توزيع مسئولية الحصار على القادة الصليبيين، ففى الشمال تمركزت قوات روبرت كونت نورماندى فى مواجهة باب يسمى باب الزهور، وإلى جانبه روبرت كونت فلاندرز أمام باب العمود، وفى الشمال الغربى جودفرى دوق

اللورين أمام بوابة يافا، ومعه تنكريد والذى يبدوا أنه عُقد بينهما إتفاق أستعاض تنكريد به عن بوهيمند، وجنوباً ريموند تمركز على جبل صهيون ،

وعانى الصليبيون العطش بعد قيام أفتخار الدولة بإفساد الأبار مما أضطرت معه الفرنجة إلى أرسال فصائل لجلب المياه على مسافة عدة كيلومترات، وقد حاول الصليبيون مهاجمة أسوار المدينة بعد خمسة أيام من وصولهم أمامها آملين الأستيلاء عليها بواسطة هجوم خاطف بعد أن وعدهم قس مسن بالنصر فى خطبة خطبها على جبل الزيتون، ولكن المحاولة فشلت بسبب إفتقارهم لآلات الحصار والتى كانوا يفتقدون مواد بناءها،

وفى السابع عشر من يونيه وصل أسطول جنوى صغير مكون من ست سفن بقيادة أمير البحر الجنوى وليم أمير باكو وشقيقه بريموس، ورسى بمرفأ يافا المهجور، وكان محمل بالطعام والأهم كمية وافرة من المواد المستخدمة فى بناء آلات الحصار، وقام تنكريد وروبرت كونت فلاندرز بقيادة دوريات البحث عن الأخشاب والتى أستطاعوا إمداد الجيش بها، مما وفر المواد اللازمة لبناء الآلات، فصنعت السلالم اللازمه لأقتحام الأسوار، كما تم بناء برج خشبى مزود بمنجنيق ،

وبالرغم من إحتدام الصراع بين الصليبيين على تقسيم ثمرة القدس قبل إقتطافها، فقد حاول تنكريد تأكيد حقه فى بيت لحم فهو من أستولى عليها، ولكن رجال الدين رفضوا ذلك وكما رفضوا فكرة تعيين أمير أو ملك على القدس فقد كان هناك صراع بين رجال الدين والعلمانيين على من تكون له السلطة العليا بالقدس، ولكنهم أستطاعوا تأجيل خلافاتهم لحين نضج الكعكة،

وثارت شائعات عن قرب وصول جيش النجدة من مصر مما ساهم فى بث الرعب فى نفوس الصليبيين وهبوط روحهم المعنوية فتم اللجوء للرؤى كما حدث ونجحت فى أنطاكيا، فشاهد أحد القسس وأسمه بطرس دي زيديريوس، الكاردينال أديمار أسقف لوبوى الراحل وهو يخبره بالخطة الواجب إتباعها والتى كما يبدوا كانت من وضع بشرى، وأخذت وتيرة بناء السلالم والمناجيق تسير بصورة أسرع، مع الحرص على تغطيتها بجلود الحيوانات المضمخة بالخل حتى لا تؤثر فيها النيران الأغريقية التى تستعملها حامية القدس، حتى تم الإنتهاء منها وسحبها إلى الأسوار، وينادى منادى بين جنبات معسكرات الصليبيين بالإستعداد للهجوم فجر الغد بالتجهيزات القتالية الكاملة

(الدروع)[37]، وهاجم الصليبيون بكل شراسة، شراسة الخائف من أن يقع بين جيش النجدة وحامية القدس، وجاهد الصليبيون حتى نجح ريموند فى لصق البرج الخاص به بالسور، وأن لم ينجح فى إيجاد موطئ قدم بالسور بسبب المقاومة البطولية من الجنود المصريين الذين نجحوا فى تحويل برج ريموند لشعلة من النيران، بعد أن قاتلوا ببسالة على مدى خمسة أسابيع، مفضلين إلقاء أنفسهم من الأبراج عن الإستسلام ،

فى الجمعة32شعبان 492هـ/15يوليو1099م بعد ما يزيد عن أربعين يوما من حصار القدس، وفى جهة أخرى كان جودفرى يحقق نجاحات مماثلة وإن أستطاع بعد جهد الإستيلاء على السور الشمالى، بعد إيصال البرج الخاص به لأسوار المدينة، بينما كان جودفرى وأخيه يوستاس بالطبقة العليا من البرج المحصن والمغطى بجلود الحيوانات المسلوخة حديثاً والمغمورة بالخل، وكان معهما العديد من الفرسان ليتقدم فارس أسمه ليتولد ويتبعه أخر أسمه جيلبرت، ثم تدفقت موجات من الفرنجة إلى شوارع القدس بدروعهم الحديدية التى لا تؤثر فيها ضربات أعداءهم، ويتم فتح أبواب المدينة بعد السيطرة على الأسوار، ليرتكبوا مذبحة بالغة القسوة ويقوموا بقتل كل ما يتحرك بالقدس غير مفرقين بين رجال ولا نساء ولا أطفال الجميع قتل، والفرنجة تبكى من سرورها،

مذبحة يصفها وليم الصورى مبتهجاً مشيداً بالعدد الضخم من ضحاياها، مثنياً على الصليبيين الذى أتموا حجهم بالإغتسال بدماء الآلاف من المسلمين بلا أى تأنيب للضمير، "حيث غطت الدماء الأرض، والأشلاء المبعثرة، تثير رؤيتها الفزع فى النفوس، بينما كان منظر الفرنج أكثر فزعاً وقد تخضبت ملابسهم بالدماء من رأسهم لأخمص قدمهم"[38]، وما أن علم أفتخار الدولة بإقتحام دفاعات المدينة حتى سارع بالتوجه إلى برج داود والتحصن به،

حتى الأهالى العزل لم يلاقوا أدنى شفقة، الآلاف منهم فروا بأطفالهم وأسرهم محتمين بالمسجد االأقصى لما له من مكانة وقدسية، ولكن الهوس بالدماء لا يرى إلا القتل طريقاً للفوز بالثواب، فقد أقتفى تنكريد أثرهم برجاله المتعطشين للمزيد من الدماء ليشهد جنبات المسجد مذبحة جديدة حتى تنساب الدماء من أبوابه، بينما تنكريد يتقافز لسرقة القناديل الفضية المعلقة لأنارة

[37] تاريخ وليم الصورى ج1 ص417
[38] الحروب الصليبية ج2ص126

المسجد، وما أن تتردد أنباء عن وجود مسلمين أحياء بالمسجد الأقصى حتى يسارع الصليبيون فى إتجاة المسجد للمشاركة فى ثواب الجريمة،

ويحاول بعض أهالى القدس الهروب بالصعود أعلى قبة المسجد الأقصى "فقد اطلق عليهم السهام وخروا صرعى يتساقطون على رؤوسهم، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص فى الهيكل، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بالدم"[39] على حد وصف أحد شهود العيان من الصليبيين الفخورين بالقتل،

بينما أستولى جنون القتل على الجميع، فمن تربى فى البؤس وتحت عقوبات بدنية لا تنتهى مثل الفلاحين الفرنج إذا ما أتيحت لهم القدرة على غيرهم يكونون فى منتهى القسوة، أنتشروا فى شوارع المدينة يقتلون وينهبون ويسلبون، "ووضعوا السيف فى الأهالى أسبوعاً كاملاً"[40] ليستفيدوا من قانون الغزو عندما أتفق الصليبيون بمباركة رجال الدين بإن أى شخص يستولى على بيت أو أى منشأة فهى تصبح ملكاً خاصاً به، فسارع الجميع ليقتحموا البيوت ليكون القتل نصيب من أحتمى ببيته هو وأسرته ويعلق الصليبى سلاحه بالبيت حتى لا يجور أحد على حقه الأثيم، حتى لم يبق من سكان القدس أحد ولم يرحموا أمرأة ولا طفلاً[41]، ويخربوا المدينة التى يزعمون تبجيلها، وما أن فرغ الصليبيون من مذبحتهم حتى أتجهوا وهم فى منتهى الخشوع للأحتفال بإتمام حجهم وإيديهم تغطيها الدماء إحتفالاً بنوالهم الغفران وما زال يتردد فى القدس آنين القتلى الأبرياء ،

حتى يتشفى مؤرخ لاتينى مجهول مشارك فى الحملة بنتاج كدهم فى قتل الإبرياء "وصدر أمر بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت أن تكون مملوءة بجثثهم، فقام الشرقيون الذين قدر لهم الحياة بسحب القتلى خارج مدينة بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب، وتعالت أكوامهم حتى حازت البيوت إرتفاعاً، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة"[42]

---

39 تاريخ الحملة إلى القدس ص74-75
40 تاريخ الأزمنة ص124
41 تاريخ الحملة إلى القدس ص75
42 أعمال الفرنجة ص120

وتدق أجراس روما إحتفالاً بالإستيلاء على بيت المقدس، بينما البابا أربان الثانى لم يكتب له مشاهدة هذا الإحتفال، فقد مات قبل وصول إنباء القدس مباشرةً ،

دخل الصليبيون القدس وحققوا ما خرجوا من أجله بسبب المساعدات القيمة التى تلقوها من حكام الشرق والتى تجاوزت ما منحه الغرب لهم، وعقب إقتحام المدينة حدثت مذبحة لمدة ثلاثة أيام بالمدينة راح ضحيتها جميع من كان فى القدس، ولم ترحم أمرأه ولا طفل ولا شيخ الجميع قتل، إلا من تحصن ببرج داود، أفتخار الدولة وحرسه، الذين سمح لهم بمغادرة القدس فى مقابل تسليم البرج،

حتى أن الجنود الصليبيون خاضوا فى دماء ضحاياهم التى غطت كعوبهم، وواجه من أراد التجول فى شوارع القدس مشكلة البحث عن موطئ لقدمه خالى من جثث ضحاياه،

شوارع القدس التى لم يجد الجيش المقدس ما يزينها به إلا جثث الأبرياء بعد أن نهلوا من دماءهم، التى أصبح الدم المسفوك مخيفاً حتى أن المنتصرين أنفسهم ساورهم الأحساس بالخوف وشعروا بالتقزز[43]، ليمر أهالى القدس بنهاية مفجعة مأساوية، ويدمر الحجاج المدينة التى يزعمون تقديسها، وكان أول إجراء قام به الصليبيون هو طرد جميع الكهنة الشرقيين التابعين فى المجمل للدولة البيزنطية من كنيسة القيامة وإقتصار الصلاة بها تبعاً للطقس الغربى، وهو إجراء لم يقم به أى من حكام القدس المسلمين،

القدس وأنطاكيا لم يكونا الضحية الأولى للصليبيين بل سبقتهما مدن أوروبية أوقعها حظها التعس فى طريق الجيش المقدس الذى لم يستطع التفرقة بين المسلمين والمسيحيين، فالجيش المقدس ترك طريق طويل فى أوروبا وأسيا مرصع بجثث الاف الضحايا ومئات من القرى والمدن المدمرة المتعالى منها أعمدة الدخان ،

[43] الحروب الصليبية ج2ص126

رسم تخيلى لجودفرى وعلى رأسه تاج من الشوك

وما أن يستقر الصليبيون بالقدس حتى تطفو على السطح مشكلة لمن تكون السيطرة على القدس، القوى الدينية أم القوى العلمانية، ففراغ منصب المندوب البابوى بموت أديمار أحدث أضطراب، فالكاردينال إديمار الوحيد الذى كان من الممكن أن ينول إجماع الجميع لتولى السلطة العليا ببيت المقدس، فى الوقت الذى ازداد فيه نفوذ الأمراء الدنيويين بسبب دورهم المؤثر فى الإستيلاء على القدس، ويضاف لذلك إستشعار الصليبيون لأهمية القوة العسكرية فى حياة الدولة الوليدة، مما رجح كفة ذهاب السلطة العليا فى القدس لقائد عسكرى محترف، وهذا ما حاول رجال الدين مقاومته ورفض تنصيب ملك على المدينة التى شهدت حياة السيد المسيح (عليه السلام)، بل أرادوا تكوين حكومة ثيوقراط (دينية) تكون السلطة العليا فيها للبطريرك كممثل للبابا بروما، أليس أول من دعا للحملة هو البابا؟، وكذلك قد سبق

ورفض البابا تنصيب قائد علمانى للحملة، بل أسند قيادتها لمندوب عنه وهو إديمار، ولكن وضع القدس والدولة الوليدة المحاطة بالأعداء حسم الأمر للقوة العسكرية ولكن لمن تكون السلطة، ريموند، أم روبرت كونت فلاندرز، أم روبرت كونت نورماندى، أم جودفرى، فهم كل من بقى من كبار الأمراء .

ساهم روبرت كونت نورماندى وروبرت كونت فلاندرز فى حل بعض المشكلة بقرارهما العودة لأوروبا، يبقى ريموند وجودفرى، ويتكفل غرور ريموند وتسلطه، وضعف جودفرى لحل المشكلة وحسم الأختيار، ليذهب المنصب لجودفرى، الذى إنتشرت أسطورة بإنه مولود من بجعة[44]، والمفتقد لأى قدرات سياسية أو إدارية، بينما قدراته العسكرية متواضعة، وأن أدى منحه لبطريرك القدس ملكية حى المسيحيين بالقدس ملكية كاملة للكنيسة، إلى رفعه سريعاً أعلى سلطة القدس، ويحمل لقب حامى القبر المقدس لعدم إكتمال شكل الدولة إينذاك، ولإتقاء معارضة رجال الدين الرافضين تنصيب ملك لبيت المقدس، تاركاً هذه الخطوة ليخطوها أخيه وخليفته بلدوين بعد ذلك،

ثم يهيم ريموند فى الشام باحثاً عن موطئ قدم لينشأ أمارته المنشوده بعد أن خسر كل ما أمل فيه، فلا هو أصبح القائد العام للحملة كما تمنى ولا هو أصبح صاحب بيت المقدس، ليستدير لحلفاءه القدامى آل عمار أصحاب طرابلس لحل مشكلته المستعصية، فليس أجدر من آل عمار لحل هذه المشكلة فهم حلفاءه قبل كل شئ، فقام ريموند بالإستيلاء على اللاذقية تاركاً مهمة الإستيلاء على كافة ممتلكات آل عمار ومحو أمارتهم بطرابلس تماماً لتحل محلها كونتية طرابلس لأبنه وخليفته برتراند، بهذا يصبح شرق البحر المتوسط بالكامل تحت سيطرة الصليبيين، لتتغير خريطة الشرق تماماً ويدخل عنصر جديد مغتصب على موازين القوى بالمنطقة لحوالى ثلاثة قرون ويستمر أحتكاكهم بالشرق حتى بعد طردهم تماماً من الشام لفترة ليست بالقصيرة، وبعد تطهير الساحل الشامى والشرق من الأحتلال الصليبى يجد الشرق نفسه وقد أجهد تماماً وأستنفزت طاقاته فى هذه الحروب الطويلة والدائرة كلها على أرضه، بينما الغرب أستفاد أينما أستفادة بسبب إحتكاكه بحضارة متقدمه بمراحل عن حضارته البالغة الأنحدار مما يساهم وبشكل مباشر فى النهضة التى شهدها الغرب فى نهايات العصور الوسطى ، بينما تنفست القسطنطينية الصعداء لإختفاء أعداءها السلاجقة، فقد أستطاع

44 الحروب الصليبية ج2 ص154

الصليبيون إضعاف الجيش السلجوقى وإبعاد خطره عن البيزنطيين إلى حين، مما سمح لبيزنطة بإستعادة بعض أراضيها بأسيا الصغرى، وكما تمكنت من المناورة بقواتها وإرسال جزء كبير منها لفرض سيطرتها على سواحل بحر إيجة ،

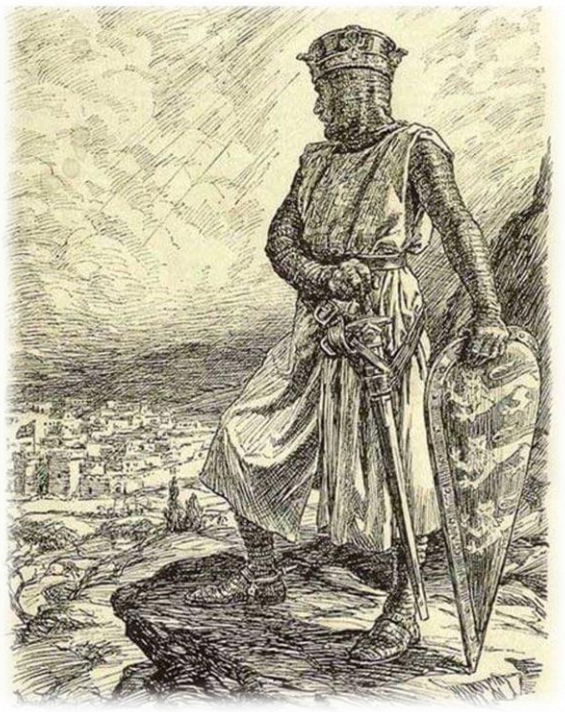

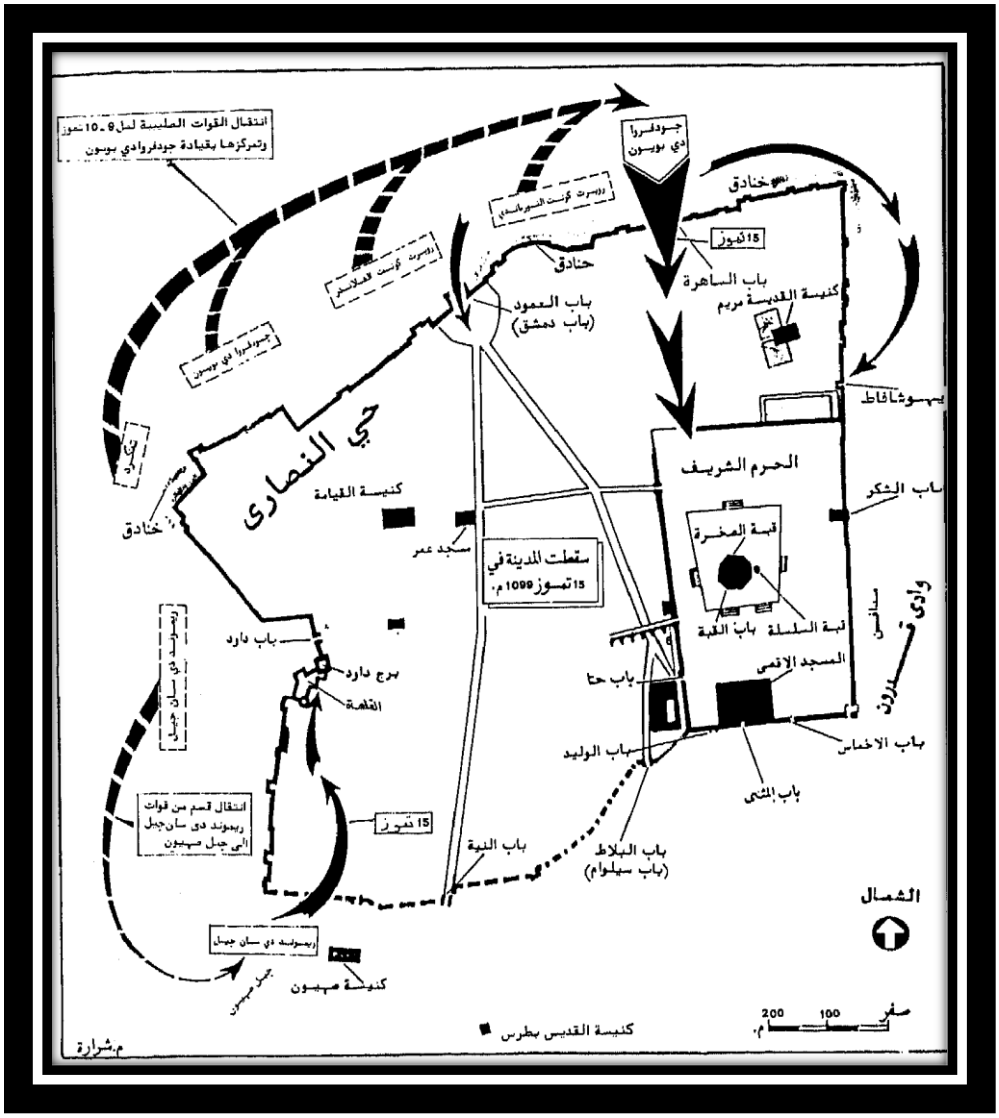

إقتحام الصليبيين للقدس

درع فارس مسلم